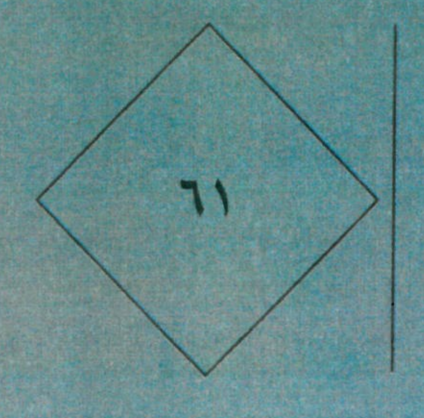
مختارات فصول

الغيوم ومنابت الشجر

عبد العزيز مشرى



الإهـــــــــــــــــــداء

إلى

أخي أحمـــــــــــــــــــد

البرعم الطمـــوح

صدرت الرواية ضمن "مختارات فصول" المصرية عام١٩٨٩ م

قال المغنّى - ورددها في مطالع أغنياته - إن العناء قد أخذ منه بكل مأخذ ، فغدا (صاحب المثل) و (مقوِّل) القول في الحكمة والمثل .. وكان بقوله، يوثق لرقص الزنود السالفة في مدار الأيام الوافدة ، فقال ، وقال .

نافـــــــــــــــــــذة

قال المعنّى :

غسلت أمي ثوبي (البفْتة) الأبيض ، وضمختـــه بـــالصبغ النيلي حتى بان على حبل الغسيل .. تحت الشمس ، وكأنه زهرة لوز في ربيعها .

نهتني عن لبسه يومها ، وأمرتني بالحفاظ على عمامتي .. فأبي سيصل ضمن أيام خمسة ، أو ستة ، وإن طال سبعة (أســبوع) .. من السفر .

للفرحة في النبض رفس ، وللرفس معنى للهدايا الجميلة ، قـل حذاء جديد .. قل طاقية مزركشة باللون والقصب .. قل قلـــم رصاص ودفتر بعشرين ورقة بياض .. ولا تقل لعبة .. فـــاللعب يضيّع الهمة وينسيك الدّرس .

للأب في الذهـــن صـــورة المعـــاقب الغـــائب . بعينـــين كجمرتـــين، ولسان في الكلام قليل تحوطه أسنان ، وبدخـــان السجائر صفراء وناب من الذهب يكاد يلمع .. ليس في الـــرأس ولا اللحية التي تشيه ممسك الخنجر شيبة واحدة .

فرحت بالأشياء ، وخفت من قدوم أبي ..

تقول أمي : إن لأبي عشرة أشهر لم نره ، وتقول : إنـــه يعمـــل سائقاً بالأجرة في " تكسي " ، فأحلـــم برؤيـــة الســـيارات في الشوارع المضاءة ، كتلك التي نراها في الصور .

حتى حين امتلأ بيتنا بعمّاتي المتزوجات ، وعمات أبي وأقرباء آخرين ، كانت تلك ليلة تجمع الكل تحت سقف خشبي تنبسط في أرض حجرته وليمة بصحن كبير ، من الأرز و اللحم .

سألت أمي . وكنا أنا واخوتي نتجمع حول النار المشتعلة في ليلة شتاء ممطرة :

ـــ لماذا يسافر أبي عندما يأتي الشتاء ؟ .

قالت وهي تحرك أطراف الحطب وتدفع به إلى وسط النار، دون أن تنظر إليَّ :

" أبوك سافر يشتغل في التاكسي ، ووقتما يجيء الحر يترك شغله ويجينا ".

يا لكثرة الأسئلة التي كنت أحب إخراجها من حدود ذهني ، ويا لخوفي من كلمة أو كلمتين أو سراب من النهر و الأمر بالانتهاء ، والسكوت ، و (ما أدري) .

* * *

غداً سأصحو عند آذان الديك الأول ، سأغسل وجهي تحت صنبور الحنفية (الزنك) الذي يقرع صمت الليل والنهار، وسيكون الماء بارداً ، وسأمسح يديّ ووجهي وأذهب مرتجفاً

إلى حيث يقعد جدي قرب السجادة الخوص . أقول لـه كمـا أقول لأبي : صباح الخير يا أبي .

وأفرك كفيَّ مدعياً أنني توضأت وسأصلي صـلاة لائقـة يرضى عنها الله وسأرفع صوتي ، وأنا أقـرأ الفاتحـة وسـورتي (الصمد) و " الوسواس الخناس الذي يوسـوس في صـدور النـاس ".

سيقول جدي :

ــ " الله يفتح عليك " .

أقول له متصنعاً مجاملاً ، سأحفظ من القـرآن (جـزء عمَّ) كله .

أقعد إلى جانبه .. ألتحف بطرف جبته الصوفية الثقيلـة .. ننتظر القهوة ، وقد فاحت رائحة هيلها والجتربيل ،

وننتظر تمراً يغرق في الدبس ، وكسرة من طرف خبزة أهـل البيت . أكون قد لبست ثوب المدرسة الـذي يفضـح إهمـالي بنقطـة خبز كبيرة على جيب الصدر ، ألف العمامة على رأسي وأربطها تحت الذقن من الطرفين .

في واجهة الدولاب العريض المحفور في ركن الغرفة ، يربـض (الراديو) ذو النور الأخضر الجميل وخلفة بطارية أبو قط كبيرة .. حيثما يظهر النور الأخضر الصغير فوق إصبـع التشـغيل .. يكون (الراديو) بصوت عبد الباسط عبد الصمد يقرأ قرآنـاً

لم ندرسه بعد ، يقول السامعون من خلفه "الله.. الله .. الله يستر عليك "

تعطيني أمي كسرة من (خبزة العيال) حنطيه حمراء على جوانبها قشور صفراء من نخالة الشعير ، توصيني أن أبعدها عن الكتب التي أضعها كلها في الحقيبة ، وتوصيني كثيراً بأكلها وقت الفسحة .

ضربني الأستاذ ، أو قل " فرشني " في اليدين هذا اليوم لسببين عظيمين :

لم أحفظ جدول الضرب كما يجب .. ولم أحافظ على كتاب الحساب ، فقد التصقت به كسرة خبز الفسحة وهي ساخنة ، فغدا منها مهترئ القشرة ، غائب قي وضوح الأرقام .. كانت الحادثة مكررة .. كانت سبباً في " شطب " أرقام جدول الضرب .

بكيت وقتها ، وخرجت وقت الفسحة مباشرة بعد حصة الحساب ، وأكلت الخبزة مبلولة بالدمع وبالخوف والجوع .. ثم جريت إلى حنفية المدرسة الكبيرة في ركن الفناء ، وملأت الكوب " الألمونيوم " وكان مربوطاً بخيط قصير في قاعدة " الحنفية " ، شربت حتى تسابق جريان الماء بأمعائي وأحدث أصواتاً كالأزيز .

اليوم الأحد .. الحصتان الأخيرتان : (فنية .. فنية) ، قـل حصتا استجمام وألوان ، وكراسات بـ (شـفاف) مـدرّس (الفنية) يحرمنا مراراً من هذا الاستجمام ويمنح حصتي الفنيـة (لمدرّس القرآن) أو مدرس (الحساب) فنكون بـين خـزف ورهبة .. ونسأل كثيراً : " لمـاذا لا يتبرع مـدرّس الرياضـة بحصته ؟ " فمدرّس الرياضة يطلب منا (بدلة الرياضة) وبدلـة الرياضة تشترى من السوق ، وما كل أب يشتريها ، والعقـاب يتوعد أكثرنا .

كنت متخلفاً غبياً كسولاً مملاً في حصـة (الرياضـة) ولا أفلح في هذه الحصة التي هي لعبة كرة قـدم .. (إلا متفرجـاً) وقد ذقت الويلات والشتائم عندمـا أكـون في موضـع (حارس مرمى) .

أما في (الرسم) فكنت معروفـاً بالتفوق ، لكنني أوبّـخ بدعوى أن الرسم مهـزلـة ، وتضييـع للوقت .. أسـأل نفسي :

لماذا لا يقولون هذا عن حصة (الرياضة) ؟

هناك شخص يعمل بالمدرسة .. وظيفته اسمها : (فـرّاش)، الفرّاش مسؤول عن إعداد الشاي للمدير والمدرسـين ، وعـن تنظيف حجرة الدراسة ، وعن أشياء مشابهة . كنا نخافـه كمـا نخاف مدرس (الحساب) فهو يحمل في يده دائماً عصا إشترخها

من الوادي (غصن من شجرة الانجاص مهذب وطويـــل) ، ولم يكن يقرأ أو يكتب أو يحفظ قرآناً .. لكنه كان يضربنا ضربـــاً مبرحاً بالعصا على وجوهنا ومؤخرتنا وأيدينا لأي سبب ، خاصة فيما يتعلق بحنفية الماء ، أو توسيخ جدران الفصول الدراســـية، فالمدرسة هي بيته الذي أضاف إليه حجرتين من الحجر وســـقفاً من الخشب والطين . و كنا نخافه نطيع أوامره مـــهما كـــانت مجحفة .. كان يعيّرنا بالجيل الفاشل الوسخ، وعندمـــا توشـــك الدراسية على الانتهاء .. يوزع علينا (طباشير) ملونة من (التي يستخدمها مدرسا العلوم والفنية) .. نركض خلفه .. ينثرهـــا علينا .. بعضنا يصيب منها الكثير ، وبعضنا يصيب القليل .

اليوم ذقنا عقابا لم نضع لـــه في البال حسابا ، فقد اتفقنـــا طلاب الصف الثالث وعددنا ثلاثة عشر طالبا .. اتفقنا على عدم تنفيذ ما يأمرنا به من حصة النظافة التي كان قد وضعها لنفســـه .. عندما مر بباب الصف .. رأى الأوراق المبعـــثرة والمقـــاعد الخارجة عن صفها ، دخل علينا رافعا عصا (الانجاص) وأخـــذ يضرب بالعصا على وجوهنا كأنه يضرب مؤخراتنا .. تصايحنـــا وبكينا طويلا .. كانت هذه هي آخر حصص اليوم ، ولم نجـــد المدير الذي يمنعه ويحذره مرارا .. لكنـــه يبتســـم في وجهـــه، ويقـــول :

" هاذول أولادي .. خليني أربيهم " .. بعدها يخمد الأمـــر، ثم يعود .

قال المعنّى :

تبقى مادتا (التجويد) و (الحساب) ..

في (التجويد) أشياء لا ، ولن نفهمها ، لكننـــا نحفظـــها، وهذا هو المطلوب :

قم يا سعيد .. قل لي ، ما الإدغام بالغنّة ، وهات لي مثلاً ؟

يحيى . ما الإظهار ، وما حروفه ، وعددها ؟

ويأتي الجواب على قدر السؤال ، وأيضاً يزيد .. كأن نقول مثلاً : " الإظهار هو إظهار الحروف من مخارجها عند الالتقاء بــــالنون الساكنة أو التنوين " ونزيد على التعريف إلى أن يصرخ المـــدرس (كفى) ..

كنا نحفظ التعاريف والأمثلة والحروف .. لكننا لا نعـــرف نقطة واحدة من معانيها كذلك (الـــقرآن الكريم) إن الواحـــد منا ليحفظ سورة كاملة دون أن يشرح معنى (بسم الله الرحمـــن الرحيم) الموجودة في معظم تفاسير القرآن ، وهكذا مع كثير من مناهج الدراسة كـــ (القواعد) و (الفقه) و (التوحيد) .

مدرس (الحساب) رجل من القرية .. يُعدّ من (أهـــــل العلم) كما يعدونه الناس .. يقولون (هذا الذي سيربي أولادنـــا

ويعلمهم) ، أما المدرسون الباقون ، فيـــأتون مـــن القـــرى والضواحي المجاورة لقريتنا .

مدرس (الحساب) .. نخافه أكثر مما نخاف آباءنا (هـــذه هي الحقيقة الصعبة) ، لقد كان يعذبنا بصنـــوف الضـــرب .. كـــان يضرب أحدنا في يديه بالعصا ، ثم يمسك بمؤخرة رأســـه، ويدق به في (السبورة) - اللوح الأسود - ثم لا يكتفي بهذا بـــل يركلـــه بقدمه ، ويخرجه من باب الحجرة الدراســـية .. يطـــرد خلفه ويتعقبه رمياً بحجارة الساحة أمام الغادي و (الجاي) مـــن أهل القرية الذين يمرون بالطريق المجاور للمدرسة .. من يراه مـــن المارة ، يقول :

" يا سلام ، هذي التربية .. هذا التعليم " !!

أذكر أن أبا زميل لنا ، قال لمدرس الحساب :

" هذا ولدي .. من يدي إلى يدك .. خذه لحماً ، ورُدّه لِيّ عظماً بلا لحم " !!

أما مدرس (التاريخ والجغرافيا) فكان من (المقـــاولين)، ولأن بشرته أكثر بياضاً منا ، ويلبـــس (البنطلـــون والقميـــص والكندرة) فهو (مقاول) .. كان مدرسنا ، مـــن الأردن ، أو من الضفة الغربية .

كان طيباً ومتفاهماً إلى حد إننا لا نقارن تدريسه بتدريـــس المدرسين من قُرانا .

وكنا نبذل جهدنا يوم الجمعة (وهو يوم العطلة الأسبوعية) ندور لـــه عند عجائز القرية عن البيض .. مرة يعطينـــــا ثمنـــه، و مرات نأخذه بالدين منهن ، ولا نعيده .. لكنه كان يراعينـــــا في الامتحان ، ويقّوي من تشجيعنا بالدرجات .

علّمنا الكثير من القصص السهلة ، وعلّمنا الخط الجميــــل، وحب المساعدة ، وبغض الشتائم واللعن ، وحـــب الزراعـــة في أحواض (التنك) وعلب المواد الغذائية الفارغة " الـــتي يرميـــها ركن غرفة سكنه داخل المدرسة ".

* * *

قال المغنّى :

هناك عمل ينتظرنا ، بعد عودتنا من المدرسة كـــل يـــوم .. نكون قد توضأنا في العلب الفارغة التي نأخذها من عند غرفـــة (الأستاذ المقاول) .. نملأها بالماء مـــن (حنفيـــة) المدرســـة، ونتوضأ وضوءاً خارجياً ، نصلي كلنا خلف مديـــر المدرســـة، ننصرف إلى بيوتنا .

نقول أمي : اذهب ، اخلع ملابســـك ، وتعـــال تغـــدّ، طبخنـــا اليوم (الرّز) .

أفرح كثيراً بالأرز الأبيض ، أغسل يدي ، تعطيـــني (رأس بصل مقشر) و .. أبسمل طويلاً، تكـــون أصـــابعي الخمـــس

اليمنى قد انغمست حتى الكف ، أغسلها ، والحق بجدي وأخوتي ، إلى الوادي لمعاونتهم في أشغال الزراعة ، ومعي كتاب (التوحيد) أو (التجويد) أو (المحفوظات) .

يسألني جدي إن كنت صليت العصر بعد الغداء ، فأجيبه دائماً بنعم و (الحمد لله) .

يوم الجمعة .. نذهب قبل الصلاة لنقرأ القرآن ، وبعد الصلاة والغداء (الذي ليس دائماً من الأرز) نتجمع قرب ساحة المسجد .. ننظف المكان الفسيح ، نصنع كرة من القماش البالي ، نلعب إلى حدود المغرب ، وقتما يؤذن المؤذن للصلاة ، ننسحب إلى البيوت .

تقول أمي بعد العشاء الذي نأكله بلهفة خلف صلاة المغرب مباشرة :

أنت .. تأخذ دفاترك ، وتقعد تقرأ ، بكرة عندك مدرسة .

أنا لا أحب هذا الأمر .. أدعو الله أن يجعل في الغد صباحاً ممطراً ، وأجلس مع أخوتي مع جدي لنسمع حكاوي جدتي .

تدهشنا الحكاوي .. فنكثر الأسئلة ، وتشح الأجوبة .. أما الأستاذ فيقول : (كلام عجائز) .

* * *

همى الليل همياً ضبابياً برذاذ المطر ، وغدت دنيا الصبح طرية مخضرة بشوشة .. حمى النهار وقت أن احتلت الشمس كل الفضاء الأزرق ..كنا قد عدنا من المدرسة بعد صلاة الظهر : جماعات صغيرة من التلاميذ .. بعضنا يحث في المشي ، والبعض يتشاجر .. وبعضنا يقطع الطريق بالكلام والأحلام .

فجأة امتلأت السماء بغيمة كبيرة حمراء .. غيمة حمراء طمست عيوننا ، وأدهشتنا .. قلنا لبعضنا إنها القيامة .. وقلنا ، بل علامة من علاماتها .. دخلنا بيوتنا ونحن نحدّث أهلنا عن السحابة التي حجبت نور الشمس .

قال لي جدي هذا خير يرسله الله لعباده .

وقت قصير التهم حيرتنا نحن الصغار .. ثم هجمت السحابة الحمراء على الوديان ، والأشجار المحيطة بالمنازل، وتحول كل أخضر إلى أحمر .. صرخ جدي بنا في البيت : " أحضروا كل الأكياس الكبيرة " .

كانت الحكايا التي نسمعها عن الجراد ، تمر بآذاننا كما تمر الحكايا القديمة ، التي نتصورها ولا نعرفها .. لكنها هذه المرّة، كانت حقيقة ، وكانت مدهشة وجميلة تدفع بنا إلى الفرح .

جمعنا أكياس الحَب الفارغة في الدار ، وخرج معنا الجيران، وتجمّع أهل القرية ، اقتادوا حميرهم لتحميلها بالصيد

الوفير اللذيذ .. العائلات تتجمع شللاً صغيرة وتهجم على الجراد، ثم تضعه في الأكياس حتى تفيض ، وتحمله على الحمير .

يا رب المسلمين . ما هذا الذي لا يبقى أخضراً ولا يذر، وما هؤلاء الناس الذين لا يتركون له في الأرض فماً ؟ يا رب العباد اجعل لنا من صيدنا طعماً ولحماً ، و (حميساً) لذيذاً .

عندما عدنا من صيدنا .. كانت النار في البيت قد اشتعلت بنهم تحت القدر الكبير ، وكان القدر الكبير يفيض بالماء الساخن .. . أما الجراد فيلقى على جباهه وعلى جنوبه .. . يصب من فم الكيس في القدر كما يصب ما (القرب) .

ينهوننا عن أكله حتى (يسهوّنه) .. يحمّص مثلما يحمص البن الأخضر في صاج كبير على النار ، ناهيك أن تعض رؤوس أصابعك وأنت بلهفة تقرضه بين أسنانك مع بعض الخبز .

ويا رب الناس ..

اختفى الجراد بعدها ، .. لم نعد نراه .. يقولون (البركة اختفت) ، يقولون في أمثالهم " في فم الجرادة ، إذا فغرت " وليت الجراد كما يتمنون أن يعود ، لتعود رائحته الشبيهة بالسمك المشوي .

يقولون :

جاءوا لنا النصارى بدواء للجراد .. هو (سم الجـــراد) .. يبيده في السماء وفي الأرض .

ويقولون :

(مكافحة الجراد) ويحرموننا من نعمة الله علينا .

إنك لتسمع هذا الحديث الطويل ، وهذا الدعاء على مـــن حرم الناس لذة الجراد .. أما البعض فيغلظ في الإيمـــان .. بـــأن اختفاء الجراد ، يعني اختفاء خير الزرع من الأرض .

كم هم الذين يدّخرون الجراد المحمـــص أدامـــاً ناشـــفاً .. يأكلونه مع الخبز أيام الشتاء وأيام الصيف؟ يا للجـــراد الـــذي كثرت حوله أسئلة الناس .

سألنا المدرس (المقاول) :

من أين يجيء الجراد ؟

قال لي وكنت في مقدمة الصـــف ، امســـح الســـبورة .. فعلـــت .. نفضت يدي من الطباشير ، وقعدت .

رسم المدرس دائرة كبيرة بالطباشير ، ورسم علـــى الخـــط الدائري بالطباشير الملونة (مراحل تطور الجرادة) .

قال : إنها تبـــدأ بـــالبيض .. وتمـــر بمراحـــل (اليرقـــة) و (الحورية) .

ودهشنا حين علمنا بأن الجراد يأتي مـــن البيـــض ، وزادت دهشتي وحيرتي من كلمة (يرقة) .. فسألت المدرس (المقاول) عن كلمة يرقة . قال : إنها تشبه الشرنقة !!

فأنا أعرف أن الشرنقة هي تلك الحقنة الزجاجية الصغـــيرة المملوءة بالماء الذي يحضره أبي معه من السفر ، فتذهب جـــدتي مسافة بعيدة إلى مكـــان الطبيـــب ، ويوصيـــها بـــالحضور في الأســبوع القـــادم . كانت تمتنع عن استعمال (الحبـــوب)، تحلف أيماناً أن (الحبوب) تنفخ الجسم ولا تفيد كمـــا تفيـــد (الشرنقة) .. أقيم على جدتي الاستياء والغضب إذا لم تجـــيء بالزجاجة الفارغة لألعب بها .

خفت أن أسأل المدرس ، فيضحك مني ، ويضحـــك مـــني زملائي في الصف .

قلت لأمي مرة : إن الجراد يجيء من البيض !!

ضحكت مني ، وقالت :

يا ولدي ، ما يعطي العقول إلا الله ..

سألتها عن العقول .. أجابتني باختصار :

ليش ما تنشد المدرس ؟

لم أقدر على الرد بشأن المدرس وإنه ينهانا عن الأسئلة التي تخرج عن موضوع الدرس .

غير أن السؤال ظل يسبب لي ألواناً من الإهانات، والضرب أحياناً .. طيلة سنين طويلة .

كان مدرس (التوحيد) ... يقول لي .. يا فيلسوف، أحفظ ما عليك و (بلاش) فلسفة!! فأنقل كلمة (فلسفة) إلى المدرس (المقاول) .. يقول لي :
هذه مادة ستقرأها عندما تكبر .

وأقرأ في (التوحيد) :

" ربي الله الذي خلقني ورباني بنعمه "

بماذا تعرف ربك ؟

أعرفه بآياته ومخلوقاته .

فيسكن السؤال ، واستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم أقرأ (قل أعوذ برب الناس ، إله الناس، من شر الوسواس الخنَّاس، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنّة والناس) كما علّمنا المدرّس .

* * *

بلاد العـــرب أوطـــاني من الشـــام لبغـــداني
ومن نجـــدٍ إلى يمـــنٍ إلى مصـــر فتطـــواني

وأتممنا النشيد الطويل ، في طابور الصباح .. جاء المديـــر، وقال لكل التلاميذ :

هيا .. توضؤوا ، سنذهب لصلاة الاستسقاء مع أهل القريـــة .. فرضاً .

وخرجنا من المدرسة طابوراً طويلاً ، وصلّينا مع الجماعـــة، صلاة (الاستسقاء) .. دعونا الله كما تعلّمنا في مادة (الفقه).

(اللهم حوالينا ولا علينا .. اللهم على الضـــرام والآكـــام، وبطون الأودية ، ومنابت الشجر) ثم عدنا للمدرسة ننتظر نزول المطر .

* * *

قال المغنَّى :

أمي هي الوحيدة المسؤولة عن حاجة البيت من الماء ، علـــى ظهرها تحمله من البئر التي يفصلها عنا جبل بطريق متعرِّج طويل .. تحمل الدلو بحبله المتين .. من غير (بكرة) تســـحب الدلـــو الثقيل وتملأ (القربة) المطلية بالقطران الأسود . تصر فمها بحبل

صغير ، ويكون فم القربة ملفوفاً كثمرة السفرجـــل الــذي نأكله في الصيف ، ونسميه (الفركس) .. تحمـــل قربتــها .. تفرغ ما بها داخل بطن الحنفية (الزنك) .. تمتلــئ الحنفيــة .. وتعود أمي لتملأ القربة ، وتعلقها في وَتدٍ قصير جانب موقد النار .. كانت تنهانا عن تبذير الماء ، وتقول : إن تبذير المــاء يعــني حرمان الله لنا منه وموتنا من العطش ، فنخاف ونمتنع .

أمام القاعد قرب جــهاز (الراديــو) ، وفي الواجهــة .. صــورة خلف زجاج ، حولها إطار أحمر نحيف مــن القمــاش المتيبس بالغــراء .

لوحة بالألوان التي تكشف قدمها بفقدان ألوانها التي رُسمــت بها وغدت باهتة بفعل دخان النار اليومي وسط الحجرة .

كنت قد خلقت ألف سؤال .. أسأل بها جدي عن موضوع اللوحة المعلّقة .. يقول :

هذه صورة لعدو الله (عمرو ابن ودّ العامري) عندمــا قطــع الإمام علي عنقه ، في موقعة (الخندق) ، على عــهد الرســول ﷺ، وأتبعه بأسئلة أخرى وأخرى .. بعضــها يجيــب عنــها ، وبعضها يسكتني، فاقضم لساني وأسكت .

كانت هذه اللوحة هي الوحيدة التي تقف إلى الجــدران .. أما صور الأب والجد .. فلم يكن هناك حاجة لتعليقها .

في زاوية الحجرة والتي ندعوها بغرفة (المجلس) .. مسـانـد محشوة بالعلف داخل (ملاءات) من القماش المخمل مطبـوع برسوم كلها نجوم فوقها هلال إثر هلال وهكذا .. يفصل بـين كل مسندين أو ثلاثة متكأ من نوع المساند ، لكنه أكثر غلظـة وانتفاخاً ..

مساحة الركن .. تحتلها سجادة حمراء داكنة أطرافها مـن جهة القادم مبرومة ، وفي المساحة المحاطـة بالمجـالس، دوائـر معوجـة يابسة من أثر الشاي و القهوة ، التي كثيراً ما تندلـق على المكان .. فتذهب مع الزمن بقعاً صلبة وواضحة .

إلى جانب المتكئ في الركن تقف بجويفه الدولاب .. برفـين كبيرين من اللوح الخشب المغطى بقماش مشجر ، وعلى الـرف السفلي يربض الراديو ببطاريته الكبيرة ، يتضح من خلف لوحتين زجاجيين مبالغ في تنظيفهما .. بإطارين من الخشب المـهذب .. فقدا لونيهما الأخضر الذي اكتسبهما من (البوية) التي صبغـا بهما ، فبان على أطراف الزجاج - مع حرص اليد التي صبغـت الأطر - غير أن الفرشاة قد كانت كبيرة فالتـهمت معـها إلى جانب الإطار .. المساحات القريبة من الزجاج .

على رف الدولاب العلوي .. (دِلال) للقـهوة صفـراء وكبيرة .. فناجين شاي مرصوصة عددها أثنـا عشـر فنجانـاً مذهبـة القواعد، ثلاث (طاسات) مقلوبة علـى أفواهـها،

ومدهونة بألوان خضراء وحمراء وبيضاء ، تلمع قليلاً في ضـــوء (الأتريك) أدوات حلاقة مفككة ، قطعة صابون متشققة قـــد التصقت بورقة بيضاء تشبه لون قالب الصـــابون الوحيـــد في البيت ، فرائحته لا تشم إلا عندما يطلي الشايب شـــعر وجهـــه وقت الحلاقة ، أمواس قديمة متناثرة حول آلة الحلاقة .. تكـــون الحاجة إليها شديدة عند بري قلم الرصاص ، أو تقليم الأظـــافر، فرشاة أسنان بدون معجون .. كماشة كبيرة بلـــون الفضـــة .. ثلاثة كتب أغلفتها مهترئة فوق بعضها :

" رأس الغول .. فتح اليمن " .

" تغريبة بني هلال " واعتقد أنه غير مكتمل .

" حكاية حسن البصري "

أما موعد قراءتها فأوانه عصريات الأيام من رمضان فقـــط، عندما يجتمع جارنا وجدي الشايب وبعض كبـــار القريـــة في السن ، وعليَّ بالقراءة إلى أن يؤذن للمغرب .. إلى جانب الكتب يستند على الجدار الداخل للدولاب مرآة بوجـــهين .. أحدهمـــا يوسع الصورة أكبر من الضعفـــين .. دائريـــة وبقـــاعدة مـــن القضبـــان الحديد المطلية وغير ثابتة .

الطابق التحتي للدولاب . إلى جانب الراديو على اليمـــين .. بكل ثقلها .. تنام بطارية الراديو الثقيلة .. تعمل لوقت قصـــير كل صباح ، وآخر أكثر منه قليلاً في الليل :

(إذاعة لندن) .. (صوت العرب) .. (صوت نداء الإسلام من مكة المكرمة) .. (ما يطلبه المستمعون من إذاعة بغداد) (برنامج أبو محمود .. إذاعة عمّان) .

أما من يحدد الاستماع لهذه البرامج ، والإذاعات بمزاج اختياري .. انتقالي ، ينقلك بين شرق الدنيا وغربها .. بين (حادي العيس) لـ (سميرة توفيق) من إذاعة (عمّان) وبين (نداء الإسلام) دون أن تستجيب لرفض الذوق والاستمتاع عندك .. ووقتها يجب الالتزام بالصمت فهو ، الشايب ، الجد .

بعد ثلاثة شهور .. قد تزيد أو تنقص قليلاً .. هناك فرحة بالبطارية القديمة ، لتفتيت أوصالها الداخلية واللعب بها وبحممها المصنوعة على هيئة أعمدة صغيرة تصلح للكتابة على الحجارة الملساء، في بناء البيت الخارجي .

إلى جانب الموقع الذي تستعمره بالبطارية الثقيلة .. توجد بعناية غير مهذبة .. كتب الدراسة، إلى جانب علبتي (الهندسة) و (الألوان الباستيل) .

المساحة العريضة التي تقع يمين الدولاب على الحائط هناك صُفت مشاجب متضاربة ملونة ، مثبتة على أعلى الحائط .. عُلقت عليها منشفة طويلة قذرة من أثر الأيدي الدسمة،

مكتـــوب على طرفيها باللغتين العربية والإنجليزيـــة : (صبـــاح الخير) .

بندقية صيد معلقة من كعبها .. (مسبت) حـــزام جلـــد مملوء برصاص البندقية (جنبية) على هيئة سيف قصير معقـــوف بحزامها الجلدي الأحمر الطويل ، (كمر) قديم بنجوم معدنيـــة كثيرة على طوله وعرضه ..

أما الجدار المقابل فمحفور علـــى طرفيـــه فتحـــي البـــاب والنافـــذة ، بينهما الصورة الوحيدة العتيقة !!

حائطان على الشمال وعلى اليمين خاليـــان ونظيفـــان .. السقف خشب مستقيم فوقه خشب رقيـــق ضيـــق الفراغـــان، داكـــن ، أسمر يكاد يلمع في الضوء ، تحتزم جدران المجبـــس .. على قدر قامة الطفل ، بلون أخضر (زيـــتي) غـــير مســـتقيم الحـــدود من اللون الأبيض العلوي للجدران .

الغرفة الملاصقة . هي غرفة (الحـــريم) ، وبســـاطها مـــن خصف النخيل ، الذي أكل عليه الزمان وشرب . و مخـــدات لا تتجاوز الثلاث ، مغطاة من قماش عتيق .... أحمر وردي داكن.. مبثوثة علية أزهار صغيرة صفراء وبيضاء .. عادة ما تحب النســـاء هذا اللون لأنه يحتمل الأوساخ ، ولا يحتاج للصابون المســـحوق إلا وقتما يكون الصابون موجودا .

وسط الغرفـــة : (مشب الملّة) وهو مركـــــز (الطبـــخ و النفخ) ، حيث يتم ردم الرماد وبقايا الجمر على (المشـــهف) الحديدي أو الفخاري ، وتحته تنضج (خبزة العيال) كل يـــوم، ماسورة مياه بفتحة ضيقة .. تقرب عند الحطـــب ، وينفـــخ في الجمر القليل من الطرف الآخر لتشتعل النار .

في الركن المقابل لمدخل حجرة (الحريم) عدد من الأكياس (الخيش) لا يتعدى أصابع اليد ، ومنتفخة بحبـــوب الحصـــاد، وقد بان من الثقوب الصغيرة التي نقرها الدجـــاج .. الشـــعير، الحنطة، الذرة واتضحت بغير تناسق حركة الإبرة والخيط ، لردع اندثار الحبوب مكان نقر الدجاج .

على رف قصير أمام فتحة الباب ، صفيحـــة (جـــالون) مملوءة إلى ما فوق النصف بالجاز ، عند عتبة البـــاب الداخليـــة، تتناثر أحذية بلاستيكية ومطاطية ، (وما انقلب منها فيجـــب تعديله ، فلا يجوز أن يكون ظهر الحذاء في وجه السماء .. مثـــل (الطاسة) على الرأس ، وويل للذي يبول واقفـــاً فعذابـــه في الآخرة شديد إن من يفعل مثل هذه الفعلة فقد قلّد النصـــارى إلا كفار من كفار .. لا نعبد ما يعبدون ، ولا يعبدون ما نعبد .

* * *

قال المغنّى :

سألت أمي (وكانت المنشـــود الأول عــن أي جـــديد وغريب ، ومتشابه) :

ما (الذنبوح) الذي يأتي كالجرح على أصابع الرجل فيأكلها ؟

جرَّدت (شرشفها الأبيض من حول رأســـها ، وكأنهـــا لم تسمع السؤال .. سوّت من قعدتها ، وكلنا حول النار (الـــتي لا تشتعل بدون دخان) فدخان الحطب يعمي العين والصــــدر .. ردت ببطء وحذر رخوين :

إياك .. من يبول في الطريق .. يـــهاجم (الذنبـــوح) أصـــابع قدميـــه .

قلت في هدوء (أيضاً) :

كنني فعلتها مراراً ، وما هاجم أصابعي ! علقت وعيناها تحدقان بي :

إن الله ، يسامحك .. مـــرة ، ومرتـــين ، ثم لا يســـامحك بعدهـــا . خفت ، وترددت في إرسال كلام متشابه كثير .. رحـــت أنكـــس رأسي ، وأرفع من مقدمة قدمي ، لأتأكد من خلو (الذنبوح) فـــهو كما فهمت يستتر بين الأصابع .

حول (الملّة) نتحلّق : أخواتي الثلاث الأصغر من ســـيطرتي عليهن ، أمي ، جدتي لأبي .. أما جدي ، فلا أدري أين يكـــون لحظتها .. باب غرفة (الحريم) مغلق بدرفتيه ، النـــافذة مغلقـــة كذلك، المغرب يقترب فيكاد انكسار ضـــوء النـــهار يختلـــط بانكسار النفوس الساكنة حول انتظار رجـــل البيـــت (جـــدي

الشايب) ، الذي يغيب عنا منذ الظهر ، وغيابه في نهار ممطـــر كهذا .. يدعونا جميعنا للخوف عليه .

المطر يصب بلا انقطاع ، يشبع طينه .. فيقطر متخذاً لـــه بين الشقوق متزلقاً ، وإيقاعات الأواني النحاسية ، وهي تجمـــع قطر السقف .. تحدث في النفس خوفاً ، وتحدث أسئلة ، وتحدث رجفة بالبرد ، وجوعاً ، والعشاء ميعاده يبعد قليلاً ، وربما يبعـــد كثيراً إلى أن يعود (الشايب) .

قالت أمي ، بعد أن تلفحت بـــ (شرشفها) .

افتح الراديو على مكة .. أظن المغرب دخل .

قفزت منتعشاً ، لأفتح باب الـــدولاب .. أحـــرّك إصبـــع الراديو فيقول على الفور :

(نداء الإسلام من مكة المكرمة) ولم أكن لأتوقـــع غـــير هـــذا .. فالراديو وقت المطر لا يلتقط من الإذاعـــات البعيـــدة غـــير (التشويش) فجأة جاءني صوت جدتي محذراً :

الراديو في المطر ، يدعي الصواعق .. اذكروا الله ، واسكنوا .

لحظتها اقتحمني خوف مباغت ، وتراجعت الفرحة بفتـــح الراديو ، فعدلت عن فعل هذا المشروع اللذيذ .

وقفت أمي إلى (القبلة) وضعت كفـــها علـــى الكـــف الشمـــال فوق الصدر ، وراحت تبسبس بكلام منخفـــض ، لا

يسمع منه سوى (السين) حين تنطق بها .. سلّمت يميناً وسلّمت شمالاً .. نهضت ، ووقفت جدتي على السجادة الصغيرة ذات الرسوم والمآذن ، لتقيم صلاتها .

دقيقة .. دقيقتان ، وامتلأ الظلام الخفيف في الغرفة بالضوء، راح صوت (الأتريك) يحتل السكون المكتئب في دواخلنا، وصرخنا بصوت طفل واحد بـ (النور جاء) .

تقدمت أمي إلى الباب .. فتحت درفة واحدة على مهل .. رأت المطر لا يزال يغسل بصوته كل ما يقع عليه .. أنصتت لحظات قصيرة ، ولم تسمع لخطى (الشايب) أثراً .. عادت إلى مكان (الملّة) كان الباب مفتوحاً .. التقطت (المنفاخ) وقذفت به خارجاً قرب الباب .

كانت الحركة تشد رجلي إلى الباب ، والسؤال يخرج من لساني مختلط بفوح أبيض كالدخان :

من أجل أن يرد المطر الزائد !!

تعجبت ، وسكت .. كنا هادئين ، وكلنا نهيّئ سوالاً عن غياب جدي ، ونعيش انتظاراً مشتركاً.. جاء صوت (حلقة) الباب في آذاننا جمعياً ونهضت كالقفزة مع أمي لنفتح وكان

جدي .. في يده مظلة سوداء كبيرة ، تقطر أطرافــــها بالمـــاء ..
قالت جدتي ، وكأنها تخاصمه :

" وينك يا مخلوق .. خفنا عليك ؟ "

جميعنا في عينيه .. طوى المظلة وعلّقها على عمدها حيـــث المقبض المعقوف .. ردد :

" هنيتم الرحمة .. هنيتم الرحمة " الحمد لله ، المطر عـــمَّ العـــالي والواطئ كنت عند (أبو جمعان) ، وما قدرت أجيئكم وســـط المطر .

* * *

قال المعنَّى :

جميل هو اليوم الذي يبشَّر صاحبه بالمطر .. إن ذلك يعـــني أننا لن نذهب إلى المدرسة ، وما هذه المدرسة إلا مكان للعقـــاب وعذاب الحفظ ، الذي لا نعرف لــــــه معـــنى ولا تفســـيراً .. حجرات بمقاعد (تأزئز) ، من الخشب على أرضية يملأ تراها ما بين أصابع القدمين ، وأسافل الثياب .. فرَّاش بوظيفـــة جـــلاَّد، لسبب وبدون سبب .

أما اليوم فهو جميل .. جميل إلى حدود الغبطـــــة ، فـــالمطر عـــذر لمن لا عذر لــــه .. المطر يمنعنا من الذهاب إلى المدرســـة،

ونبـــالغ في هذه الحجة الممطرة .. لكننـــــا نتســـحب خـــارج البيوت.. تحت أشجار اللوز الكبيرة .. نقذف بزهوره ، ونخـوض بالأقدام الحافية في الماء الذي يغدو ما تحته طينـــاً ، وحجـــارة ، و أعواداً يابسة (والشاطر منا) هو الذي لا يشكو بـــرداً ، ولا يشتكي من (حكة) الأقدام عند ملامستها لدفء النار وقـــت الغروب .

أما وإن كنا قد تذكرنا المدرسة والمدرسين ، علـــى حـــين غفلـــة من لهونا .. فإننا نصيح :

(..   أبوكم)

يسمعنا رجل أمامه جمل (لا ندري ما يحمل) ، عـــائداً إلى بيته ، في الطريق القريبة .. يقف لحظة .. يقول ، هكذا علمتكـم المدرسة ؟ .

عندما تسوقنا البرودة ، وتكون الشمس الـــتي لا تظـــهر إلا قليلاً في هذا اليوم ..قد لمت بقاياها النافذة بين السحب .

تتراخى بهجتنا ، وتغدو بلون يهيؤنا لصباح قادم ، نســـتعد فيه للذهاب على أقدامنا مدفوعين نحو مبنى المدرسة .

مشــــــــــهد رقم (١)

قال المعنَّى :

على امتداد الطريق ، الذي ينحدر في الذهاب إلى المدرسة، وبجانب الجبل الذي يلامس نهاية أسفله نهر صغير ، لا يجري إلا وقت أن تمتلئ الآبار بالماء .. وقت أن تصبح دنيا القرى في الجنوب كما تُمسى : ضباب كثيف وأنوار وسحب كالقطن المعفَّر بالفحم ، ومستنقعات كالمرايا تتناثر ، وطين على الأقدام الذاهبة في المشاوير .. وقت أن تبتل كل صلابة من مطر الشتاء.

يجري النهر الصغير .. ماراً بصخور تملَّست على مدار السنين ، فأصبحت ملساء ثقيلة وقوية ، وعندما تأخذ شمس الصيف في النهوض بكل أحياء الماء الشتائي .. يأخذ النهر في النهوض بحوافه الخضراء ، ويأخذ في الهبوط ، ثم يجف شهراً إثر شهر حتى لا يبقى منه إلا بقع آسنة تطفو على وجهها الطَّحالب، وعلى أطرافها تقذف بالرائحة المنداة بنباتات الحبق .

أما ما يفرح متأبطي الحقائب المقفلة لحفظ الكتب وخشية من البلل .. فهو ماء النهر الصغير ، فوقتما تتألف فيه المياه من كل المساقط الجبلية في المنطقة ، يغدو قوياً وجارفاً ، ويغدو عذراً في الغياب عن المدرسة .

يذكر على الألسنة من الأهالي ، أن السيل يتخذ له نهراً صغيراً وقت هبوط الأمطار على الأرض .. يجترّ معه كل ما

يقف في مــجراه ، وكم أخذ معه من الناس ، ويحــذرون الأولاد من عبــوره أيام اندفاعه الأولى في الشتاء ، فلا يعبرونه إلا برجــل عاقل ، يحكم التصرّف اللائق ، وينجو بالصغار .

وقد كان أهل القرى الساكنة في الجبال المطلة من بعيد علــى هذا المجرى يترقبون يوماً تتفضل فيه البلدية الــتي تشــرف علــى الضواحي الكبيرة فقط ، فتبنى لهم جسراً ليتمكنوا من تجاوز النــهر الصغير دون غــرق ، ومــع أن الجســر الــذي يدعونــه بــ (الكوبري) ، لا يزيد في طوله عن الستة أمتــار في أغلــب المقــاطع ، ويمكن إقامته من الخشب المتين ، أو من الصخور القوية والخشب ، وفي أصعب الحالات بالأسمنت المسلح الذي لا تعرفــه القرى في هذه الحقبة .. إلا أنَّ البلدية لسبب لا يمكن التكهن بــه، لا تعير الموضوع بالاً ، ولا تعلم بحاجة الأهالي إليه إلا وقتما يأتيها أنباء اختطاف مجاري السيول التي تجئ على هيئة مثل هذا النهــر الصغير ، مثلما يمر النبأ بأية مسامع أخرى .

وإن هذا النهر الصغير ، ليقف كالمانع بين أهــل القــرى في الجبال من ضفته الشرقية ، فيصد الهابطين على حميرهم وأرجلــهم إلى (سوق الخميس) ، ويمنع عنهم حاجيات السوق الدوريــة كاللحم وبعض الفواكه والحناء والريحان و الكادي ، وتروى علــى ألسنة الكبار حكاية صاحب الحمار الذي كان يحمل حماره مِلْحــاً،

على عكس ذاك الذي كان حماره يحمل قطناً أو علفاً جافاً، فيسقط حماره ويبتل الحمل بالماء فيثقل .

ويرى الناس أن حجر (الجلّة) وهي النهر الصغير ، دائم الأذى ، فإن وقعت عليه آلمك ، وإن وقع عليك آلمك .

* * *

قال المغنّى :

كانت الأرض تميد ، وكان الطين يبث رائحته القوية فتختلط بالأنوف الباردة ، وتذهب الأنفاس كالمباخر ، وكانت مفاصل الأصابع في اليدين والقدمين ، تأخذ نهايتها في الحكة والورم، وكانت الأقدام التي لا تأمن الخوض في المياه والطين ، قليلاً ما تنعم بـ (الكنادر) ، وما كل قدم بحالمة بها إلا ما قلّ .

غير أنه لا بد من ملابس ثقيلة ، كأن يكون على البدن ثوبان ، وعمامة صوف على الرأس ، أو كوت طويل بأزرار موثقة ، أما الملابس المباشرة على الجلد ، فمن الصعب أن تجدها كاملة ، أي من قطعتي (الفنيلة والسروال) ومن السهل أن تجد السروال الذي لا يخلو عادة من القمل، وهذا يترك بقعاً سوداء متناثرة مكان الحزام من السُّرة .

لا أحد يعلو على غيره ، فكل الأولاد لهم سراويل ، وكلهم عندهم قمل ، ووقت تباشير الصيف يأتي لكل عبد نصيبه من البراغيث ، ولو كان في بروج مشيدة .

كانت الإشاعات في فترة كهذه ، تؤكد على أن (حملان الغنم) هي مصدر ثرى لتكاثر البراغيث ، وبعد هذه التباشير الصيفية ، يكون القمح قد اخضرَّ ، وصبغ المدرجات وبطون الأودية ومنابت الشجر بأمواجه الخضراء ، فيطرح من بعد صلاة الجمعة الرأي المعهود ، فعلى كل ذي غنم ، أن يبعد غنمه عن الزرع ، ويذهب أصحاب الغنم ، فيوعون قطعانهم القليلة عند البدو ، على مسافات بعيدة جداً عن القرى ، ثم يأخذونها منهم بعد الحصاد . يبقى في الناس صاحب غنم واحد، يتأخر في توديع غنمه .. فيتعدَّى على الزرع ، ويهمل غنمه وهو من خلفها تدعر على صيوف الخلق .. فيلقى من كل لسان الخزي ، ويلقى تقريع الكلام ، ويلقى من الكل اللوم .. ثم يتخذونه مثلاً ، فتقول لغة القوم وقت أن يجدوا من أحدهم تعدياً وتحدياً ، إنك لا تعطي حقاً ولا تعترف بباطل، كأنك فلان في تعديه .. أما فلان هذا، فإنه لا يلقى اهتماماً بما يلقاه من كلام الناس .. لكنه آخر أخير، يرونه قد ساق أمامه القطيع .. محاذياً الجبال .. هابطاً إلى مقر خيام البدو في مسافة قد تبعد نصف يوم ، ليودع غنمه مع قطعانهم،

ويعود كغيره بشيء من الإقط والوعود الجميلـة برعايـة الغنـم والزيـادة عليها وقت تسليمها بعدد من (الحملان الصغيرة) .

أما البدوي ، فلا يأخذ الريالات .. لكنه يـأخذ الحبـوب، ويأخذ الملابس وأشياء يفتقدها في حياتـه البدويـة كالدخـان الأخضر والسكر .

مع أن قانون توديع الغنم وقت نبات الـزرع في الصيـف .. يكون قاطعاً ، ومعروفاً عند كل من يملك قطيع . إلا أن أصحابهـا قليلون جداً .. فكل الأهالي يملكـون الحمـير ، والبقـر أحيانـاً والثيران ، وفي الأغلب ثور واحد .. يغدو مع ثور الجـار سـانية للحراثة والسقاية .. لكنهم جميعاً يربون الدجاج ، ولا تغيب عـن العين في كل بيت حضرة القطط .. أما الكلاب فنجسة .. تبقـى في الساحات البعيدة والطرقات الخارجة ، وليست للتربية إلا فيمـا ندر .

حينما يدخل موسم زراعة الـذرة .. فصـل الخريـف ، لا خـوف من دعرات الغنم .. لأن نبات الذرة يكون ساماً حـين تأكله .. فيخاف أصحابها عليها ، ولا يدعونها تركب رؤوسـها كما يتهيأ لـها .

الذرة في أول طلوعها خضراء نضرة مغرية . هنـا لا مكـان للذكرى التي تنفع كل ذي زرع من بعد صلاة الجمعة .. ومن أراد أن يقتل قطيعه فليتعدَّ على زرع الغير .

* * *

وقال المغنّى :

وردت السيارات إلى القرية ، وجاءت بالحبوب ، وجـــاءت بالفواكه النادرة ، وجاءت بالملابس الجاهزة ، وجاءت بما لم يعهده الناس من قبل .. فكانت النفس تشتهي الجديد ، وتتـــوق لكـــل حديث، فالأشياء المبهرة والمريحة .. تحتاج للريالات ، والريـــالات لا تأتي إلا من منافذ غير مهيأة أسهل ما فيها بيع الثـــور والبقـــرة، والغنم ، ثم ترك الأرض وإهمال العناية بها ، وشغف ذوي الزنـــود الشابة بالأسفار.. أما الشيوخ فلم يهن عليهم هـــذا ، وإن مـــات البعض فهو يموت بحسرات كبيرة .

كان القليل من الرجال ، لا يزال قوياً .. صلباً .. ملتحماً في علاقته بالفلاحة ، وبرغم وجود الحنطة الأمريكية ، الـــتي يصفـــها البعض بأنها تشبه الذّهب ، إلا أنه يأبى منها ، ويعـــاف طعمـــها، ويشاكس أهل بيته ، فيطلب منهم خلط قمح الديـــرة بالشـــعير، وصنع الخبزة السمراء ، فطعمها لا يوجد في حبِّ النصـــارى ، ولم يكن ليعرف عن النصارى إلا أنهم أقوام أعداء للعرب والمســـلمين، ولا يصدّرون إلا كل ما هو ضار ، ويـــرى أن الأمريكـــان هـــم

النصارى ، بينما يسمي الآخرين من الإنجليز و الطليـــان ببلدانهـــم وليس بدياناتهم .. فيقول : إن هذه صناعة إنجليزية أو ألمانيــــــــة، وأن ألمانيا هي أم الصناعات ، أما كل ما ينتجه اليابان فهو تقليــــد وسريع العطب .. وللمسلمين الآخرة والثواب دائماً .

لأنهم لا يعيرون بالاً لملذات الدنيا ، وكل أعمارهم تذهـــب في العبادة والحمد لله ، ولا ينالون إلا على قدر ما يتعبون وبزرعون .

ويقف مواقف الذين لا يريدون معرفة مـــا خلـــف حـــدود الزراعة والبيت ، وتنشئة الأولاد على التقوى والصـــلاح وعـــدم الغش وصدق النية ، والذي تذيعه لندن ، ويذيعه راديو مكة .. هو الذي يستحق أن يُسْمع .. أما إذاعة بغداد ، وعمَّـــان فطيِّـــب في الغناء وبرنامج (أبو محمود) عن البادية .

* * *

قال المغنّى :

كان العائدون من الحج هذا العام ، قد وصلـــوا ، وجـــاءت سيارة (الفورد) الحمراء بصندوقها الأحمـــر الخشـــبي ، يفيـــض بحاجيات من ذهب من القرية للحج : فراش للنوم بداخل بســـاط خفيف مخطّط من القطن ، صندوق معدني به حاجيات تم شـــراؤها لأهل البيت منها كيس القماش المضغوط بـــالحمص والحلـــوى ..

أدوات حلاقة جديدة .. كوافي مزركشة .. دفاتر بيضاء .. أقلام رصاص .. عدد متناثر على طول وعرض الصندوق من حبات (الاسفنيك) لقتل العثة وإشاعة الرائحة الطيبة في الصندوق .

وقفت السيارة على مساحة شبه ممهدة ، وأخذ كل حاج يفرز أمتعته ، وتحلّق الأولاد وجاءت البنات من الأطفال ، ووقفت النساء فوق المنازل ، وعلى النوافذ من بعيد .. الكل بفرح يؤكد: هذا أبي ، هذا أخي ، هذا عمي . لهن نصيب من عوائد السفر، لكنه قليل ، غالباً ما يكون قماشاً، وهو كسوة رأس السنة، مع بعض ما تحتاجه مؤونة البيت من أشياء ذات قيمة .

وكانت حاجيات البعض ثقيلة وتحتاج إلى حمارة تحملها : كرَّة ، أو كرتين فأكثر .

دخل الأب ، وعلى باب الدار ألقى السَّلام ، ووزع القبلات والابتسامات على الأولاد ، وخصَّ الولد الكبير بالسؤال الدقيق عن الدراسة والأحوال ، وقال ، (سنتين) سنتين فقط ، وتخرج من المدرسة ، ثم أضاف في محبة ظاهرة : في الغد تكبر ، تصبح رجلاً، وتسافر ، تشتغل في الوظيفة .. نفرح بمجيئك .

قالها بلهجته ، وكانت حنونة استطاعت أن تصل الابن بسهولة وعمق . كان سؤاله عن أمهم، يكاد يبين وقت أن قال الابن الكبير :

أبي .. أمي مريضة ، في فراشها منذ سافرت .

تقدم الأب ، وفرحة اللقاء تضمر ، وبلهجة محياه تأخذ في الفتور .. إلى مكان فراش الأم ، وقف على قدمين منفرجتين، أحنى جذعه ومد يديه على جبينها .. قالت بنفس غير منقطع :

" الحمد لله على سلامتك " .

وكانت موجة من الامتنان والدفء وحبور اللقاء من بعد الغياب ، تتطوَّح على جبينها الرابض تحت كفيه . قعد الأب، وأزاح عن رأسه العمامة والعقال ، ألقى بالتفاتتين في اليمين ، وفي الشمال .

وقال :

" لا حول ولا قوة إلا بالله " كأنما يتمتم بها ، أضاف بصوت يسمع بوضوح :

" الحمد لله ، وإن شاء الله تكون العواقب سليمة " .

كان الأولاد يحتلون الركبتين ، والحجر من الأب ، وكان الابن الأكبر ، يختصر وسطه بيديه ، ويلقي ببصره على المنظر الذي يشاهده لأول مرة في هذا الوضع .. نظر الأب إلى ابنه الأكبر، وأشار إليه بالجلوس .. أما البنتين والابن الصغير ، فقد طال ترقبهم ، وفاضوا بالسؤال عما جاء به أبوهم من الهدايا .

حنى بيده الثقيلة كمن يربت على كتف طفل ، فوق جبين الأم ، ونهض .. كانت الحقيبة المعدنية التي تشبه الصندوق ، قد

فاحت رائحتها الجميلة المحببة .. رائحة لا معنى لها إلا أن بداخلها أشياء جميلة ، تماثل فوح حاجيات دكّان العم (خضر) بالقرية .

وبدأ قريض الأسنان ، يدهك الحمص والحلوى ، ولمّم الأب كيس القماش الذي خف ضغطه، وقال آمراً ناهياً :

هيا .. اخرجوا .

وقد عنى حسبما فهموا ، الابتعاد بالضجيج عن رأس الأم المريضة .. عاد وقعد برفق هادئ قرب الفراش ، وكانت بنت التاسعة بإرشاد الأب ، تحضر عدة القهوة ، وترمي بتراكيبها في آنية (الدّلة) على النار ، وكان الحطب الذي يتوقد بدخان أزرق كثيف ، يبعث في نفس الأم نشوة بحضور الأب ، و إشعال الحركة الآمنة في البيت .

قال الأب ، إنه سيذهب بها إلى الطبيب .

وقالت الأم ، إنها ستشفى قريباً ، ولا حاجة للأطباء .

وكان جوابها ينبثق من كربتها في التنقل إلى طبيب الضاحية البعيد ، ومن حرصها على طمأنة الزوج بخير ما حدث .

كان إصراره أكبر من تمنعها ، وقرر بعد شرب القهوة ، أن يأخذها إلى الطبيب ، فلعلمه اليقين ، أن الطبيب لا يأتي لمعالجة أحد على أية حالة كانت ، ولم يعهد أن جاء لأحد .. فقد كان من الواجب أن يشد من حيلته ، ويحزم عزيمته ، ويتوكل على الله ثم يجهز ركبه على الحمارة ، ويهيئها للزوجة ، فالقرية وإن كانت

تستقبل السيارات ، لكنها تكاد تخلو من مالك لهــا .. ولا حــل، ولا جواب لحال كهذه الحال ، إلا الحمارة ، ففعل .

في البيت .. كان الابن الكبير يوصي ويحذر الأخوان ، بالحرص على الطفل الصغير ، والأخ الأخير من اقترابــه بالنــار ، وكــان الطفــل الصغير يضم سكاكر الحلوى المختلطة بثنتَّين وحيدتــين، ظهرتا في القريب الماضي ، وكانت السكاكر المختلطة باللعــاب، تسيل على مكان الذقن وعلى الصدر العاري ، فتكون للذبــاب محطة مغرية ، وكان ثوبه القصير المعقود في رباط فوق العجــيزة، يكشف عن فخذين طريين وصغيرين بلون وردي متفتح ، ولم يكن الثوب ليسلم من نفايات الطفل التي تأتي على هيئة البيض المقلــي بالبصل والسمن .

وقال الأخ الأكبر ، لأخته ذات التسع ، إن عليها أن تخـــرج بـــ (سالم) الطفل إلى ساحة الحوش، وسيساعدها في دلق الماء من إبريق الوضوء .. فالطفل يتأذّى ، من الذباب ، ويعاني من الوساخة السفلية .

أما الزوج ، فقد لف رباط عنق الحمارة في الكـــف ، مشـــى يقودها ، وعلى ظهرها جسم بالغ في النحافـــة .. ينـــوء بـــالألم، ويشكو في صمت من الوجع ، ومن رجة الاهتزاز بين كل قائمـــة تضعها الحمارة في الطريق ، وكان الصمت يهب وقـــع الحوافـــر متسعاً من إنصات الآذان .. التفت الزوج إلى الخلف ، وعمـــد إلى

تهذيب الخيمة السوداء على الكتفين وفــوق الــرأس ، فــأزاحت الزوجة عن منخريها الغطاء ، وقالت متمتمة ، إنها مريضة وليــس فيها لعين رجل اشتهاء .

برفق أسند الزوجة من تحت الكتفـــين ، وربــط الحمــارة، و-جعل من كتفه وذراعه متكأ للمريضة ، ودخل عيادة الطبيب .

كانت العيادة تعج برائحة المطهّر ، وكانت الرائحة تكشف أن المكان بالتحديد ،هو طبابة للمرضى ، وعلى أريكة من الخشــب الطويل ، قعدت ، ورمت بأنّة قصيرة ، ثم تمنّت ألاَّ تكــون قــد أظهرتها للزوج .

بعد انتظار ، أُذِن لهما بالدخول ، وقال الزوج ، إنــه يرجــو الطبيب بكل خبراته أن يتكرَّم بوصف العلاج المدمــر للمــرض، وراح يشكو لــه حال الأطفال في البيت ، وحاجة عائد من البيت إلى زوجة العمر والولد .. وردد كثيراً من التأكيدات بأنه ســيبذل الغالي والنفيس ، فكَّر وقتها في بيع البقرة الحلــوب ، وفكــر في الاستدانة قبل البيع ، وفكّر في رهن ممتلكات صغــيرة .. وقــال الطبيب :

تأخرت يا زوج الحميلة ، فالمرض تمكن ، والشــفاء بيــد الله، وعلينا فعل ما نطيق ، وعلى الله تنفيذ ما يريد .

قام الطبيب إلى خزانة زجاجية في ركن العيادة ، وجاء بحقنة كالماء ، فغرزها في الورك الواهن ، فتألم العظم ، وكتمت الشكوى ، ثم كتب على علب الحبوب الملونة :

(١ X٣) و (٣ X ٢) بعد الأكل يوميا .. وأضاف بالاختصار إن لله عينا لا تنام .

فعادا من حيث أتيا ، ساح في الصمت الطويل الهم الأبوي، ونقرات الحوافر ، وبعض الأنياب القصيرة، وشخير الحمارة طول الطريق .

لم يسأل الأولاد أباهم عما فعل الطبيب ، لكنهم شكوا إليه من خلافات بعضهم مع بعض ، فشملهم بكثير من الرضا والمراضاة .

قالت الأم : إنها فرحة ، لأنها أصبحت تعتمد على بنتها ولا تخاف على البيت من الإهمال وقت غيابها .

كانت تعني الغياب الأبدي لم تبينها لبنتها .. ضحكت البنت، ورمت برمشين صغيرين نحو الأرض .

* * *

وقال المعنى :

اليوم هو الثامن ، وفي كل يوم نرمي بالأدوية في الجوف المريض (٣X١) و (٣ X ٢) بعد الوجبات التي تلوكها في فم يرفض كل أنواع الأكل ، وقال (مطر) : يا حليمة ، أنت مريضة والشر سيغدو بك ، والأكل هو الذي سيرد فيك الروح ما رأيك ،أهبط إلى السوق ، وأدور عن كبده غنم جديدة ؟

(وكانت غاية ما يشتهيه المريض في القرى وقت أن تنسد النفس عن الطعام .. هو كبده الغنم الجديدة ، تُشوى على الحطب، ويذهب المثل النادر (ما أشتهي ولا الكبد) . قالت (حليمة) : إنها ما تشتهي ولا الكبد) .

وقال أهل المشورة من المقربين : إن الدواء لحالة كهذه لا يعرفه الطبيب ، وقالوا : إن الفقيه هو من تكون البركة في يده، ويكون الشفاء على يده ، ويكون الدواء النافع يلمس يده .

وقالوا : يأخذ زوجها معصب رأسها ، ويسلمه للفقيه عشية نهار ، ويحكي له عن مرضها .. فيقرأ ويتمتم ، ويبصق على شياطين المرض ، ويركّب السعود ، والمعوط ، واللطوخ والمطوخ، ويضرب دهن البقر بحناء المساحيق ، فإذا ما حرك بإصبعه الجاف المسحوق النديّ الطري ، غدت مسببات المرض في حضرته خاضعة لأمره ، وغدا بعلمه وفقهه وديانته ودعوات لسانه كمن يمحو الفحم عن الورق .

وكان الفقيه المداوي ، يسكن في نائية القرى ، وخلف كـل الجبال البعيدة ، ومسافة الزمن في السفر إليه ليس أقل من نصـف نهار .

عجن (مطر) معصب الرأس الـوردي في جيـب الثـوب، و تيقّن من وضع الريالات إلى جانبه .

وقال : لكل سبب مسبب ، ولا أحد يعرف مكان الشـفاء إلا الله فكل الأمور تأتي بأمره وإلى أمره .

وقال جهّز حمارة المشاوير والمقاضي ، وقرّب الماء وكل ثقيـل، وركب تاركاً قدميه الطويلتين تقتربان من الأرض علـى الجنبـين وقصد الفقيه .

* * *

وقال المغنّى :

كانت الأيام ملاءاتها البيضاء سواد الليالي ، وكـان المـرض يتفسخ بشراسة داخل المريضة ، وكان هـذه المـرة أقـوى في الشراسة .

أما حصيلة الأمر ، فقد جاءت النساء القريبات ، ومـا بعـد القريبات في القرية ، وكن يذكرن (حليمة) بالخـير ، وإن كـن

يأتين على مواضع السوء في أفعالها معـــــهن .. لكنـــهن يقلـــن : (راحت بخيرها وشرها .. عفا الله عنها) .

ولم يكن الميت رجلاً ، وإلا لأقيمت مراســـم العـــزاء ثلاثـــة أيـــام، وقرئ القرآن ، وجاء أهل القرى المجاورة ، ولكان تجمـــع الأهالي من كل أطراف القرية ، وحضر كثير من الأولاد للصـــلاة على الجنازة ، وللحصول على نصيب من التمرات وفناجين الشـاي في مجلس بيـــت الميت ، لكنها كانت حليمة ، وحليمـــة امـــرأة، حرمة (ناقصة عقل ودين) ماتت في وقت أطفالها لشدة حاجتهم وارتباطهم بها يبكون .. وبعضهم يلعب مع الأطفال لا يـــدري أن أمه ماتت بمرض (البلهارسيا) الذي لا يعُرف الكثـــير نطقـــه أو معرفة أسبابه وقت فتكه ، وهاهو يقضي على أناس غيرهـــا مـــن الأهالي ، والكل يؤكد أن عمرها انتهى ، وأن القضاء إذا جـــاء لا يؤخر ساعة ولا يتقدم ساعة .

كان (مطر) في خفاء بطرف عمامته يمسح الدمع الصـــامت، ويشد من عزم الابن الأكبر والبنت ذي التسع سنين ، أما الطفـــل (سالم) وأخته التي تخطّت الرضاعة ، فإن الله سيشملهم برعايـــة من عنده ، ومن أوكل أمره إليه فلن يخيب .

* * *

وقال المعنّى :

كان على الأب الآن ، أن ينسى أيامه الماضية مـــن حــاضر أيامــه التي يعيشها وحيداً مع أولاده ، وهاهي أثقال البيت وهـــمّ التربية وملاحظات ما بالداخل ، وما بالخارج ، تتورّم فوق أحزانــه التي تعاطي القناعة حالة إثر حالة في نسيانها .

ولكن إلى أين ستتخذ هذه الحالة مسارها ، وماذا سيكون الغد إن سافر ، أو خرج للعمل ؟ وكمـــا أدرج ببصـــره في أركـــان البيـــت، رأى مؤنته تتسارع في النقص .

مرَّت أمور بفكر (مطر) ، وكان أهم ما فيها وحدة الـــروح، وحاجة الأطفال لمن يلتف حول رعايتهم ، والشيب لم ينشر بيـــاض خيوطه على مواقع الشعر في الوجه النابض بدم الشبـــاب ، وليـــس للشبـــاب إلاّ البحث عن (بنت الحلال)، وما (بنت الحــــلال) تلك براضية عن القدوم فوق البيت الذي تنتظرها فيـــه أطفـــال، وزوج يحتاج لرعاية العروس .. أما الأحوال فكلنا مـــن ســـكان الحجر والطين ، وما لأحد على الغير في الرزق والمال مكان علـــى الآخر .

لم تكمل السنة دورتها حتى تزوج (مطـــر) مـــن (فضـــة) المعروفة في القرية برجولتها ، وصاح الناس في الأحاديث :

مطر ، رجل طيب ، فضة رجل في صورة حرمة .

لكن (مطر) وجد في رغبتها منه طريقاً لتنفيذ الزواج، وكان القلب في وحدة الليالي وهمّ الأطفال .. يخفق بالعجل، فتوكّل على الله ومهرها ثلاثة آلاف للحلي ، وألفين نقداً (ريال ينطح في ريال) .

ثم أن الحال تغيَّر عما كان يريده (مطر) فقد تولت (فضة) على كل صغيرة وكبيرة ، وأصبحت هي الآمرة الناهية ، وتحوَّل بيت (مطر) بقدرة قادر إلى بيت (فضة) حتى الذاهب إلى بيت مطر، إن سئل يقول ، (رايح بيت فضة) ، وعندما تكون المرأة في القرية آخذة في صفة الآمر الناهي قيل (فضة) .. وذهبت مضرباً لأمثال كثيرة تُنتزع من صفاقها .

ومع أن (فضة) ، كانت كالفضة في كرمها وطيبتها مع أولاد مطر ، وفي علاقاقما مع من يحسنون العلاقة معها ، إلا أنها كانت تسيّر مطر السير الذي يروق لها، خاصة ما يتعلق بالمشورات الكبيرة ، كأن يبيع البقرة ، أو يجدِّد علاقته مع أحد الجيران ، أو يبذر الأرض عدساً وليس قمحاً .. وهكذا .

هاجت بنفس مطر أيام (حليمة) الطيبة ، واشتعلت بذاكرته شهامة الرجل الذي لا تعصي له امرأة أمراً ، وقال، خسرت كلمتي ودَفَنَتْ (فضة) رأيي ومشورتي ، وأصبحت

أمشي على رأسي ، وذهبت كالمعّيرة في لسان النـــاس .. فتمــدد لصباح يوم وتردد ، وهاجم (فضة) بلسان قادح، وثارت من فمه كلمة الطّلاق .

وكان الأطفال بعد رعاية ثلاث سنين ، قد نموا ، كبر الإبـــن الأكبر ، وأمست بنت التاسعة قادرة بيقين على الرعاية في البيت .. أما المـــال والحلال، ففي البيت حمارة المشاوير ، والبقرة التي يُعتمد على حليبها للعيال والضيفان ، وهـــذا الـــذي يحمـــد الله عليـــه (مطر)فقد باع بقرتين ثم باع بقرة (حليمة) ، ثم اشترى واحـــدة وباعها .. اشترى وبقيت .

وللحراثة ثيران البعض ممن يؤجرهـــا ، وحقيقـــة الوضـــع لا تعتمـــد على الزراعة إلا قليلاً ، أما المورد الجديد فأصبح الســـفر، والسفر في الحج لخدمة الحجاج ، وتسميها القريـــة (الطلعـــة)، وهي الطلوع من مكة إلى عرفات ، وفيها يحصل على مالٍ مُـــرضٍ مقابل الخدمة ، أو التجارة الخفيفة ، أو التحميل علـــى ســـيارات الشحن ، وبعضهم يظل شهرين أو ثلاثة حتى تنفـــد تجارتـــه ، أو يصفيها ثم يعود للقرية .

وفي الغالب تكون تجارة الحج هـــذه ، في حـــدود رأسمالهـــا، ومكان عرضها ، الذي يأتي على هيئة بساط تفرش على مســـاحته الأشياء الصغيرة المرتبطة بمشاعر الحج ، كأن تكون مـــن المســـابح الكهرمانية الملونة والتي تضيء في الظلام ، أقراط وأســـورة مـــن

البلاستيك و (الفالصو) مشابك للشعر والملابس ، أمشطة ومقصات وأمواس ، مرايا صغيرة بأطر ملونة ، مقارض للأظافر، وما تجانس من تلك المتشابهات .

أو أن تكون على شكل أدوات الخيام من الحبل إلى الوتد، أو محارم و إزارات وحقائب صغيرة لحفظ ريالات وأوراق الحاج .

ولرأس المال الأساسي في هذه التجارة ، قصة لا تختلف عن غيرها كثيراً عند من يتاجرون بهذه الحال ، فإن كان لمن يرغب فيها كفيل معروف ، فإنه يستدينها من التاجر الكبير الذي يقرضها بالجملة أحياناً ، وبعد بيعها يأخذ قيمتها مع ربح معلوم في وقت معلوم .

ولمطر في هذه التجارة خبرة أكتسبها مع مواسم الحج من رفقاء القرية والقرى الأخرى ، حتى غدا معتمداً عليها كوظيفة حرة كل سنة .

اكتسب معها ، كما اكتسب البعض ، كلمات من عدة لغات ، تمكنه من التخاطب مع الحاج الهنود ، والإندونيسيين، والإيرانيين ، والأتراك .

* * *

وقال المعنَّى :

في البيت المؤلف من طابقين بناؤهما من الحجـــر الصلـــب، والذي روعي فيه على قدر من الجهد ، حـــتى تبـــدو الجـــدران مستقيمة مهذبة ، تحت سقف من الخشب ، وتأتي علـــى هيئـــة سقائف من الجانبين تلتقي على عمود عريض وقوي ، ويكون في وسط الغرفة الحجرية ، ولا تسمى له عنـــد لســـان القـــرى إلا بـــ (المرزح) أو (الزافر) ، مع أنه يغدو زماناً يلد ويموت فيـــه تعاقب الأجيال ، ويغدو بكفه العريضة التي تحمل على الجـــانبين رؤوس الخشب وفوقها الطين وقش السقف الذي يؤتي به مـــن حواف النهر الصغيرة والبرك ، ((واسمه الوحيد (الحفـــا)) . هناك على عمود البيت هذا ، نقوش متعاقبة دقيقة في الصـــف، متوازنة الاستقامة ، تتجسد تحت طلاء القطران الأسود .

الطابق السفلي :

(السِّفل) (١) ، يكون مربطاً ومباتاً للثور والبقرة والحمارة، ومراحاً للغنم ، ويكون مخزناً للعلف وحزم القصب الذي كان أخضر مجهزا ًلمربط عذوق الـــذرة ، غرفـــة واحدة مظلمة لا نـــرى طرف اليد في الليل ، يمكن الرؤية داخلها في النهار، مقســـمة بقواسم حائطية من الحجر لا تبلغ السقف ، وفي الأركان تكون مرابط المواشـــي : (الحلال) . في أسفل مكان من السكن ، كأن يكون البيت يتكّـــون مـــن دوريـــن، يكـــون (السفل هو الطابق الأول) .

وحيث أن الأجداد وما قبلهم ، استأنسوا الحيـــــاة داخـــل مساكنها التي تكاد تخلو من غير فتحة الباب الخشـــبي الوحيـــد والثقيل ، فإن الأبناء قد اعتمدوا على بنائهـــا المتـــين وســـقفها الشديد التحمل ، وبنوا فوقها طابقـــاً جديـــــداً (العاليـــة)، يختلف في وجود النوافذ ، وفي الغالب تكـــون نافذتـــان ، وفي الجدار الواحد لا يكون أكثر من نافذة ، تقف علـــى إطارهـــا الخشبي الخارجي ، عمدان حديدية عريضة وذات بأس عظيـــم في الصلابة ، أما الأبواب وكذلك الإطار العريض .. فعلى واجهتـــه تظهر أخاديد الزخرفة التي حفرت بمنقاش النجار ، وهو النجـــار الذي يهذِّب خشب البيت و (المرزح) والأبواب .

وكنوع من الحرص والحذر ، تأتي في الجدار الواقف بقامتـــه فوق باب (السِّفل) حفـــرة بوســـعها أن تحتـــوي صـــبي في العاشـــرة، وفي الحفرة (رَصَد) (؟) طويل ومتين .. يرتّج البـــلب السفلي الذي يغلق على المواشي .

عدة الزراعة بكاملها ، والحبال المفتولة من جلود البقـــــر .. تبقى معلقة على الجدران الحجرية ، في أوتاد من خشب الشـــجر القوي ، حتى تلزم الحاجة بأخذها ، ويغـــــدو (الغـــرْبَ) (٣) الوعاء الجلدي الكبير الذي يمتلئ بماء البـــئر، وتشـــده بالحبـــال (السواني) و(.. يغدو مرتعاً وغذاءً للفئران إن طال إهماله .

للباب العلوي مصراعان ، يغلق أحدهما علـــى الـــدوام ، إلا إن جاءت مناسبة ، يفتح الآخر نهاراً ، وفي وقت المغرب يغلق حـــتى الفجر ، وبه حذاقة وبراعة في النقوش المصفوفـــة ، علـــى صـــدر المصراعين قبتان نحاسيتان صغيرتان في حلمتيهما مـــن الحديـــد .. تصلح أن يقرع عليهما القادم ، وأن تـــؤدي وظيفـــة للممســـك بالبابين وقتما يرغب في الفتح أو الغلق .

أما القفل فيكون من (الضَبَّة) (٤) ولها مفتاح كبير جـــداً معقوف وبسنتين أو ثلاث ، أو يكون القفل حديثـــاً قـــد غـــزا مكـــان القديم وجاء فوق فجوته في الخشب ، الطابق العلـــوي كله حجرة واحدة تمتد من الجدران إلى الجدران ، ومن جـــدار النافذة الآخر إلى جدار النافذة ، في الوســـط يتمركـــز عمـــود (المرزح) وإلى أمامه قليلاً ومقابل لصفحة واجهتـــه المنقوشـــة (عَضَدْ) (٥)طيني وأثري ، اقترب من الحمرة في اللون لقيامـــه بدور الحاشية على النار مخلفة الرماد الحار ، الذي يكتـــم القبـــة المعدنية وتحتها عجين ثخين ، هو خبزة أهل البيت الوحيدة مـــن الصبح إلى المغرب ، وللعشاء قرص خفيف – قياســـاً – بـــالخبزة الصباحية ، وليس على الرماد وبقايا الجمر يستوي ، ولكن علـــى صفيحة دائرية من الصاج وتحتها النار ، يقلب على الوجهين حتى ينضج .

في ركن الطابق العلوي من الحجرة ، غرفة مجـــددة بألـــواح الخشب ، مبنية باقتصاد شديد بباب واحد و نافذة لها ، فبداخلها منامة الزوج والزوجة ، وصندوق الملابـــس والحلـــي الفضيـــة والكهرمانية ، وحجج وصكوك الأراضي الزراعية (المسـقوية) (٦) (و العثّريّة) (٧)

(?) يصطلح في المفهوم القروي الجنوبي على أن (السفل) بكسر السين وتسكين الفـاء ، هو الغرفة التي يكون فيها مراح المواشي ، وعادة ما تكون في أسفل مكان من السكن ، كأن يكون البيت يتكّون من دورين، يكـــون (السفل هو الطابق الأول) .

?) بمعنى المزلاج الذي يرتج الباب من الداخل ، ويكون في الغالب من الخشب .

(?) الغرب (بفتح الغين وتسكين الراء) ، إناء جلدي كبير على هيئة دلـــو لـــه تراكيب من الصليب الخشب في الأعلى ومن مثاقل صخرية ، يربط في أعلاه وأسفله (الرّشا) : حبال جلدية ، وتنتزع السواني بواسطته الماء من البئر .

(٤) الضبّة بفتح الضاد وتشديد الباء المفتوحة وتنطق بالظاء أخت الطاء هي قفل قـديم من الخشب يدار بمفتاح معقوف من الخارج .

(٥) قرأها في العربية الفصحى بمعنى (الملة) بفتح الميم ، وفي القرية كذلك يسـموها (الملة) وتعني بالتحديد الحجر الدائري المنبسط الذي توقد عليــه النار .

(٦) المسقوي : الأرض الزراعية التي يعتمد في سقايتها على ماء الآبار أو العيون .

(٧) العثري بفتح العين وتسكين الثاء الأرض الزراعية التي تعتمد على ماء المطر .

ربما كان إلى جانب موضع فراش الأولاد ، الذي يأتي من بساطات محشوة بالقطن المستورد ، وأحياناً من العلف وكذلك المخدات ، ربما كان إلى موضعها سرير من جدائل سعف النخل المفتولة، على قوائم من الخشب ، تنام على ظهره العجوز ، جدة الحكاوي والرأي المحترم .

وتحته يقف كالديك المنفوخ .. إبريق الوضوء الفضي ، ذو العنق والقاعدة ، والحوصلة الواسعة المتعرجة من أثر الاستعمال، وفي غياب الملاحظة يكون كرة تعبث به أقدام الصبيان بين الركن والآخر ، ولا يمكن إنكار دوره كخزان لماء الشرب في الليل ، وقتما يحتاج النائمون قربة للماء .

قال المعنّى :

في البيت المؤلف من طابقين بناؤها من الحجر الصلب، بنتان وصبيان وثلاث دجاجات إحداهما تنتقل بفراريج زغبه في الساحات وتحت أشجار اللوز النافر بالحنُّون الأبيض وبين أقراص التين الثابت بالشوك وبين الدجاجات ديكان يتناقران في غيرة يضرب بها المثل ، فيدمي أحدهما الآخر ، ويرى دجاجته علامة إنتصاره بريش غريمه المبثوث في الأرض المحيطة بالدار ، عرفان أحمران كتاجين ، كوردتين ربيعيتين في الوادي ، ونزاع طويل منذ كانت البيضة والدجاجة في نزاع الجدل .

في البيت بنتان وصبيان قساة بصلابة الحجر ، وسألت البنت الصغيرة أباها :

لماذا تركتنا أمي فضة ؟

لأنها فضة تركتنا .

حك (مطر) مقدمة الرأس .. فأي سؤال ، وأي جواب ، وما أحوجك يا (مطر) لفضة ، وما أكثر ما يهلك من يستمع إلى كلام الناس ، رأى أن يرسل من يأخذ بخاطر (فضة) ورأى أن يذهب بنفسه لمصالحتها ، فالطلاق كان واحدة ، وشرع الدين أباح الرجعة ، فلعنة الله على الشيطان ، وعلى زلة اللسان وساعة الغضب ، ورأى في نفسه الذّلة إن هو عاد لمصالحتها ، فقد تعوَّد بقوة في التسلط ، وقوة في الأمر ، وقوة في السيطرة البالغة .

وما كان أحد ليعلم شيئاً عما يجثو في نفوس ساكني البيت، ولا بما يتناطح في نفس (مطر) من الحسرة ومن الندم ، فغدا البيت كعجوز شده الزمن بالصلابة ، فخرج تحت شمس الشتاء يستدفئ ضوءها ، وكان يبدو للمارين من جهة الطريق التي تحاذيه ببابه السفلي المتين ، ونافذة الطابق العلوي ، كوجه مجدور بفم مقفل و عين واحدة عوراء ، أما ما يشفع له هذا العبوس من بعد الرضا فهي تلك الأشجار الموزعة بغير نظام

من اللوز في الساحة المحيطة به ، وألفة الدجاج المحدث صياحا وآذانا ونقرا .

* * *

وقال المعنى :

مضى على الإنسان حين من الزمن ، وألقى خلفه بماضي الماضي وجعل له من نكبات الدهر علوما كالدرس في الأيام الجديدة ، وكان لأطفال (مطر) الآن في البيت نضارة تبهج كل أركان الليالي المظلمة .

ها هي رياح (النجدية) التي كانت تهب بغدرة غامقة مع الذكريات ، وتهب في نفس الموقع تحوق معها تراب الساحة لتصفح به على عباءته التي تلمسه داخلها فوق جناح الطابق العلوي المكشوف وقد ملأ فراغ صمته البعيد ، صوت راديو صغير يذيع محاكمة .

اسمك ؟

جاسم

- سنك ؟
- خمسة وثلاثون .

ويسأل الآخر من كان بعده ، تأتي موسيقى تكاد تهز المذياع الصغير ، ينظر (مطر) من على الجناح المطل على الساحة السفلي فيرى الرياح تهجم على أغصان اللوز وكأنها تتشبث لتعلق بها ، يحك مقدمة الرأس ببطء ويذهب مع الموسيقى القوية، فيردد (يا لبشاعة الإنسان ، يا لضيق الصدر، يا لضيق الأوطان !!

تمنى لو أنه يعرف القراءة والكتابة ، وتمنى لو أنه يعرف القراءة ولو بدون الكتابة ، وتمنى أشياء مهمة يفتقدها ، طوف بعينيه المليئتين من الغبار ، ثم مد يده إلى المذياع ، وحول إلى (هنا لندن) وكان يضبط موقعها ولا يخطئ لتظهر صافية واضحة بالرغم من تعاقب الأجواء في السماء وفي الساحة القريبة بالبيت .

كان ابنه الأكبر يخرج من الباب ، وكانت يداه تحمل على راحتيها وبين الأصابع ، كتابا بغلاف أخضر باهت استدار الولد وكانت أصابعه تذهب في تقليب صفحة جديدة من الكتاب . السماء قد انغمرت بما يشبه الرماد بينما كانت (هنا لندن) تغيب وتأتي من بعيد لتغيب مرة أخرى ، وكان النهار يهدد بالانقراض ، أما أشجار اللوز فكانت على أغصانها عصافير كثيرة تنشد نشيدا واحدا ، قليل النتوءات ، ودخل (مطر)

البيت وكان يحمل في يده المذياع الصغير بعد أن طوى عمـــوده المعدني الطويل ، وأسكت بثه .


مشـــــــــــــــــهد (٢)

قال المغنَّى :

أربعون ذراعاً بالتقريب ، هي ممشى القدم الذي يفصل بين بيت (مطر) وبين جاره (ظافر) وهو جار طيب ، بالغ التحفظ قليل الكلام ، قليلاً ما يفتح جسر العلاقة بين سمعه و لسانه .. قليلاً في زيارته لمطر ، وقد حدَّد علاقة اسمها (جئت أسلِّم ، و أشرب قهوتكم) مع جاره بعد زواجه من (فضة) . ولم يكن لسبب شكاه منها أو من (مطر)، (غير أن الناس لا تترك أحداً في حاله) فهو يسمع ويصمت، ويمتلئ سمعه بتسلط (فضة) وإلغائها لرجولة (مطر) وعلى قدر معرفة (ظافر) بأمور النساء وقوة جبروتهن وقتما يحين لهن الحين ، فهو لهذا الأمر أو لأمر ما يتحاشى زيارة (مطر) الجار ومع أن الدين قد أوصى في الجار السابع .. إلا أن (ظافر) (ويبدو أنه من باب الصدفة) يقيم مودة وصلة مع جاره السابع (بن زايد) وهذا الآخر يبادل (ظافر) المعزة والسؤال الدائم والسهرات المطعمة بالتمباك وبالشاي والقهوة وسماع الراديو .

أطفال (ظافر) لا يهدأ لهم يوم ، دون أن يلتقوا بأطفال (مطر) وكذلك فأطفال (مطر) لا ينسون أصدقاءهم وجيراهم وقتما تصيبهم هدايا الحج والأسواق : حمص، حلوى ، فاكهة ، وحتى عندما يشربون شاي العصر ، فإنهم

يسرّبون أحدهم لدعوة أصدقائهم ، وللبنات حميمية أكبر من الصبيان أما بيت (ظافر) فلم يكن ذا طابقين لكنه بغرفتين متلاصقتين : واحدة لهم والأخرى للماشية ، لا تختلفان في تفاصيل بنائهما عن تفاصيل بيت (مطر) إلا أنهما كانتا توليان واجهتيهما نحو جبل قليل الارتفاع يطل على الوادي ويقابلهما من الجانب الغربي جبل جيري الصخور ، كان الأولون بنوا على ظهره بيتاً مربعاً بباب واحد ، هجر منذ زمن لا يعرف تحديده ، قال أهل القرية أن سبب هجرانه و انقراض ساكنيه القدماء يعود إلى أنهم شبهوا به بيتاً عتيقاً وبنوه على صفاته في الطول والعرض والارتفاع وفتحة الباب الضيقة الوحيدة ، ولم يعد له فائدة إلا ترديده للصوت القوي وقتما يصرخ أحد من الجانب المقابل للجبل .

ومع أنه يختلف اختلافاً قوياً في تشابهه مع الحصون المتناثرة على حدود القرية ، إلا أنهم يدعونه (حصن فلان)

إن الميزة التي ترفع من مقام بيت (ظافر) هو موقعه المشرف على مزارعه .. في الوادي وقرب السفح وهو ليس ببعيد عن بئر الماء وأقرب إلى محطة السيارة في بيت جاره ، كما أن لشجر الطلح والعرعر خضرة دائمة تكاد تغطي على فروع اللوز الممتدة للقادم إلى أول امتداد الساحة ، ولا يختلف عن أكثر

بيوت القرية التي تفتح أبوابها علـــى الســاحات مباشــرة دون أحوشة.

وكان في الساحة حوض مبني من الحجارة القصيرة معلـــف للجمل .. إذ كان والد (ظافر) جمّالاً والجمّالون في القريـــة لا يتعدون أصابع اليد الواحدة ، ومع أن الجمـــل الـــذي يمتلكـــه، كـــان الوحيد بلون أسود (قُرحان) (!) إلا أنه يغدو للبعـض ثمرة تندر تمضغها أفواه المكلفين ، ذلك لهزالة وضعف قوته ، فقـد كان بقوائم ورقبة طويلة نحيفة ، وبطن كالزير الكبير ، وقد دعـا البعض أن أطلق عليه (بوليس النجدة) و اليوم .. فلـــم يعـد للجمال سوق رابح والحمير تكاد تلحق بها ، إلا أنهـــا لا تـــزال الحل الوحيد في حمل الثقيل على الجبال ووعورة الطرق .
بقي لظافر حمارة تمشي إلى جانبها جحشة بفرو قصـــير أكـــرد وتحب القفز ، وتهوى الركض السريع ولا تفـــارق الأم وقبـــل أسبوع واحد ماتت بقرته إثر الولادة وخلفت عجلاً أحمر أولتـــه زوجة (ظافر) عنايتها وكانت تحقنه في فمه بملء طاسة من

(قرحان) بضم أوله وهو الجمل الذي لم يصبه القرح ، والوارد هذا ما اصطلـــح عليـــه بالجمل الأسود اللون السريع الحركة ملفتاً للنظر .

الحليب (الصناعي) ولكنه كان يأباه ، ثم اكتشفت أنه يـــأبى الشرب مـــن الطاسة ، فجاءت برضاعـــة ذات فـــم مطـــاطي وذهب يمتص أربع قنان منها في كل وجبة .

و (لعفراء) وهو الاسم الذي يحب (ظافر) أن يدعو بـــه زوجته (إذ كان اسمها الذي سميت به من ولادها (عايضـــة)، إلى جانبه جاء اسمها الثاني الذي لا يعرف كيف جـــاء) .. لهـــا ولدان وبنت واحدة تقترب من الزواج بشعر أسود طويل وعينان واسعتان عسليتان ، وأنف دقيق في مقدمته مستقيم بين العينـــين وفم كفم قطة ، أما الوجه باستدارته وقسمات ملامحه ككـــل، فإنه على العموم ، وجه (عفراء) بعينه (كل ناظر إليه ، يقـــول سبحان الخالق) .

واحد من الأولاد الصبيان ، في مدرسة القريـــة الابتدائيـــة الصف الخامس ، والآخر هو أكبر الثلاثة.. مسافر أحب حيـــاة المدينة ، ويأتي وقت عطلة السنة

وفي الأعياد .. لكنه يأتي لأهله بالريالات والكسوة وما يحتاجـــه البيت من مؤنه .

لم يكن لعفراء رابطة مودة و لا قبول بفضة ، وكانت تكره سابق ذي بدء أي زوجة لمطر من بعد وفاة (حليمة) .

فكان لها سابق رعاية خفيفة بأطفال (حليمة) ، (حيث تركتهم أمهم لمن يحنو عليهم) ــ على أي - فلو فركت راحتيك لوجدت أنها امرأة لا تعطي للزوج أمراً ، ولا ترضى من أحد بالتعدي ، ويمكن لمن يقابلها أول مرة أن يصفها بالغباء وفي جوهر الأمر ، إن (عفراء) تتلاءم في كونها مع (ظافر) ويغدوان زوجين صالحين لبعضهما وليسا ممن يذكر في القرية، ولا يتميزان بأية صفة تذكر . (ظافر) لا يكره أن يكون عادياً ويحب الستر ، ودعوته تتكرر بـ (الستر والعافية)كما أنه ممن يحرصون على تأدية واجب الله في الصلاة والزكاة وتجنب الحرام ، وقد كان له في ابنه المسافر رأياً فيه بعض اللوم فهو يرى أنه ولد مخالف لعادات أبيه ، فلم يكن بالذي يحب الزراعة، ولا الزواج في أول الشباب ، وليس بالذي يعطي الله واجب الفروض ، ويرى أن المدينة زادته عصياناً ، وعلّمته التمرد والغواء ، (هذه عادة المدن في تخريب فطرة أبناء القرى) وحكى لعفراء وهما في فراش النوم بعيداً عن الأولاد أنه يخاف على ولده هذا من الضياع ، وأنه لولا قيامه بواجب الابن تجاه الأب ، لكان قد حذّره من السفر ومنعه من العودة ، ولزوّجه من ابنة خاله حتى ولو رفض ، وأضاف في كربة بانت من تنهيدته الخفيفة أن الناس القادمين من المدينة يشكون في علاقاته

مع الشباب هناك ، يختلون بأنفسهم في الليالي ويجلسون حتى طلعة الصبح .

أدار رأسه جهة الجدار ، وقال إنه لا يدري ، اكتفى بالاختصار .. ثم استمساها خيراً ، وغمر وجهه تحت اللّحاف. حدث(ظافر) جاره السابع ، وكان النهار تتخلله رياح جافة ، فتبعثر الضوء وتبعثر التراب ، وتهز الأشجار، و لم يكن للراغب في الجلوس على جناح البيت المكشوف مكان في الهبوب الحاد .. وكان حديث (ظافر) يأتي جافاً كلحاء شجر الطلح ، فيسقط في أذن (بن زايد) كما تسقط قطاطير السقف في إناء النحاس وقت المطر والنائم تحت غطائه ينشد الهدوء ، وكان يتناول الكلام من شدق (ظافر) ثم يهز رأسه هزات خفيفة يغمض بين بعضها عينيه الصغيرتين ، بينما أخذت الرياح تعج بغصون اللوز فتحدث فحيحاً يختلط ببعضه، فيشبه حزمات قصب الذرة الجاف وقد راح يسحبه على الأرض قطيع من الإبل .

و لم يكن في حال تسمح له بمقاطعة (ظافر) ، ومع صبره الصامد بعينيه المكتحلتين بغبار الساحة ، فقد لثم وجهه فبان صغيراً ، واختفت اللحية المهذبة داخل اللثام ، وراح يغمض من العينين المتعبتين كثيراً ، وكأنما يستحث (ظافر) في النهوض من عجاج الرياح .

وكان ظافر قد دخل ، وأدخل معه الجار ، سرداب طويـــل من المخاوف والترقب والاستشهاد ببعض من نـــالت أفكـــارهم عذابات الأسفار . وقال كثيراً من : (أخاف علـــى حمـــدان) وكان الجار، عند آخر هذه العبارة ، يرد بكلمتين وأنة مواســـية (الله يستر .. آه) وكانت (آه) تسبق الكلمتين أحيانـــاً فيدرك (ظافر) أن جـــاره سيضيف (الله يستر) . كانت الريـــاح لا تزال تقذف بهبوبها المترب ، ورفع (بن زايـــد) كفـــه أمـــام وجهـــه، عند آخر وقفة قصيرة في حديث (ظافر) ، وكأنمـــا يستسمحه في التوقف ،

فعرف (ظافر) ، وقال ، نعم علينا بالدخول إلى البيـــت ، و لم يرض (بن زايد) أن يشاركه (ظافر) في حمـــل دلـــه القـــهوة وفناجينها ، أما طبق التمر الصغير فقد خلا إلا مـــن النـــوى . ودخلا بخطى حثيثة ، وكان بيت (بن زايد) بثلاث حجـــرات متلاصقة ، وكمثل البيوت الأخرى ، و لم يكن لـــــه أطفـــال، سألت زوجة ظافر عن عفراء والأولاد ، فقال باقتضاب إنها بخير هي وأولادها ، واقتصى مع جاره ركن الحجرة وخرجت الزوجة تتفقد دجاجاتها ، فانغمرت في الهبوب والتراب . استفرغ (بـــن زايد) حديث ظافر ورأى ، وهو المجرَّب بأمور الحيـــاة ، أن المهموم يعالج بالاستمتاع ، ويقاسمه الهم ، ويطرح المشورة ، و لو

كانت أوهن الصروف ، وقال (بن زايد)وكأنما كان قوله تعقيباً : إن الغائب حجته معه ، وإنه كان مع من تظن ، فهو أعرف بأموره والخوف على المتعلم ليس في حق .

مدَّ بن زايد يده ، وضرب بها ضربة خفيفة على كتف ظافر، وهو يفرط مع ضحكته الخفيفة :

" غضب الله على الشيطان " .

كانت الزوجة تدخل من مصراع الباب المفتوح ، وكانت تشتكي بهرج بان أنه تذمر من فعل الرياح في الخارج ، واشتكت من فعل الكلاب في فراريج الدجاج ، ولو أنها أهملت ملاحظتها ، سألت إن كانا يرغبان في الشاي ، وأومأ (بن زايد) بالإيجاب بينما صعدت أبخره برائحة محببة من إبريق الشاي الرابض إلى جانب الفناجين أمامهما .

* * *

قال المعنَّى :

جرت الأيام ، وكان جريها على قلب (ظافر وعفراء).. بطيئاً ، أما قلب الأم فقد تفتت بالخوف ، وملل الترقب ، ثم

تيبَّس من بعد حين على المضرة ، وبقي على الحنـــين .. يعلـم جسارة الابن ويعلم درايته بما يفعل ، وربطــت نثـار القلـب بالدعـاء ، وقالت عند كل صلاة : لي رب عينه لا تنام .

وفي المنام ، كانت تطرد الأوهام بدعاء الخفاء ، ولا تقبـل على الفراش حتى تتوضأ وتدير السواك عللا الأسنان ثم تتعـوّذ وتتلوذ وتستجير بالله من كل مكروه في الغيب . كانت قصـيرة القامة ، وقصيرة اليدين وذات أسنان مصفوفة ، تعلن عن رونـق وجمال أيـام الشباب ، وكـانت مخارج الحـروف وهـي تـدعي ،تنطلق واضحة سليمة ، وإن كان الدعـاء في همـس، فيخرج مصفرا عند حرف السـين ، ويكـاد يعـرف عنـد (سنسنتها) أنها تصلي أو تدعي الله في الخفاء .

تعودت أذنا (عفراء) على وقر الكلام ، وقالت لنفسـها : (أسد هذي بطين ، وهذي بعجين) وكان ظافر يقضي طـول وقته في البيت ، ويأنس في الذهاب إلى (بن زايـد) وكـان في أول الأمر يتجنب المناسبات التي تجمع أهل القريـة ، و خاصـة تلك التي تكون فيها الأفراح ، لكنه يحرص على حضور صـلاة الجمعة معهم .

كانت شمس الغروب ، تنفث بعناء آخر ضوء تحت أهدابهـا، وتصبغ قمم الجبال ، وأعالي المباني والأشجار بصبغة حمراء تشـبه ذوب البرتقال ، و لم يكن في هذا الوقت فسحة للبدء في أي عمل

يحتاج لوهج النهار ، هاهي ذي عفراء تدور بـــالبيت ، تحــوش الدجاجات ، وتعد فراريجها ، وتحضـــر علـــف (الحـــلال) ثم تؤكّــد بعنايتها على الباب ، وتضبط رصده في ثقبـــه . وتهــز الباب يقيناً بأن رتاجه قد ثبت .

وفي الصباح ستخرج العجل ، والحمارة ، والفراريـــج مـــع أمـــه إلى الساحة ، لتنظف كل روث في المرابط ، وتصبه في كل مكان تجمعه بالخارج ، ولما تقضي هذا الواجب اليومي ، تغســـل الكفين الصغيرين ، والقدمين الملوثتين ، وتوقظ العيال .

أما (ظافر) فيكون قد نفض عنه النوم ، وتوضأ وصلّى، ثم بسط كفيه و لحمهما أمام وجهه ، و انطلقت من تحت شـــاربه المتراخي الدعوات ، وطوى سجادته وقعد بانهمـــاك صـــامت . يستمع إلى قرآن الصبح من الراديو .. يسرح في أمر حاور صدره طيلة البارحة و لم يفض به .

وقال لعفراء ، وقت أن ذهب كل ذي شأن إلى شأنه مـــن أهل البيت ، إنه يرى أن يسافر مع أحد المسافرين من الجماعـــة لرؤية ابنه . وكانت مقاطعة (عفراء) له بمرافقته ، قد جعلتـــه يرفع الصوت في الوجه الحي ، مدللاً أنها لم تحسن ما تراه ، وراح يصب عليها الاتهام بخرق مسؤولية البيت ، وإهمـــال الأولاد، وأن السفر لا يليق بها في حالة كهذه ، فتمتمت ، وغطت علـــى

لسانها القول ، ودعت لـــه بـــالتوفيق ، ولحمـــدان بالســـلامة والرجوع.

اختصرت كثيراً في الجواب على سؤال (زهرة) وقالت :

يا بنتي ، سافر أبوك في شأن مستعجل .. يعود في القريب .

وما هو الشأن المستعجل ؟ قصدك أخي حمدان ؟

أخوك حمدان بخير ، وربما جاء برفقة والدك .

ولماذا ، يسافر أبي .. إذا كان حمدان سيخرج ؟

وأنتِ ، لماذا تبحثين عن قعور الطلح !

أدارت (زهـــرة) رأســـها ، اهـــتزت (شـــيلتها) (١). فأعـــادت طرفها تحت الدائرة المشدودة بالوجه ، وغرزته بـإصبعين نحيلين قصيرين ، ثم دنت من أرض الحجرة تلتقط شيئاً ما ، كان في غير مكانه ، وهي تتمضمض بقصيدة شعبية كان أولها :

حب الكنـــــــــد مالنـــــا بـــــه

مـــا نشتي إلا ذرتنـــــــا (٢)

قال المعنّى :

تسعة شهور إلا أياماً قليلة .. كان القمر في لياليـــها يفُـــت بدره منتصف كل شهر ، وحمدان يحلم بنور كبير يبتلـــع حـــتى الأفق ، لم يكن يتغير فيه متغير ، ما خلا ذقن عفـــت الشـــفرة،

فغدا نابتاً كالحشيش اليابس ، وأسوداً كـالغداري ، أمـا إذا
أردت أن تسأل عن حساب الأيام والساعات، فأسأل من بعدهـا
بقسطاس دقيق في مكان أضيق من رحم الأم رحم الأم أنبل .

عندما كان الحاضرون في وليمة ، ذبـح فيـها (ظـافر)
الخراف ، يسألون (حمدان)عن أخبار السفر ، كان يجيب مـع
الابتسامة الدائمة باختصار .

(الشيلة) يبدو أنها عامية آتية من (الشال) في الأصل ووردت هنـا حسـب
الاستعمال في مجتمع القرية بمعنى (الخمار) بالدقة .

هذا ما تقوله أول قصيدة شعبية في رقصة (المسحباني) التي تقوم على الطبـل
الموقع بخطوتين إلى الأمام وخطوتين إلى خلف في صفين متقابلين ، وهـي رقصـة
عادة تخلو من السلاح .. رقصة للرجال فقط . ومعنى البيت (إننا لا نريد حبـوب
القمح التي ترد إلينا من على البحر ، (كندا)وإذا ما تجلت أرضنا بالقمح ،فـإن
حبوب (الذرة) و (الدُّجر) بضم الدال وهي حبوب شبيهة بـ (الفاصوليـا)
مقبولة وجميلة ولا نتمنى لها بديلاً ، وكلمة (هيل) ليست بمعنى (حب الهـال)
الذي يوضع مع القهوة ، إنما بمعنى جميل ومحبوب (مقبول ورائع) .

وفي يوم تدفقت شمس ، غلفت كل حركة للناس في القرية، قعد (حمدان) إلى قرب نافذة عريضة ، ترمي بفتحتها إلى الساحة الفاصلة بينها وبين بيت مطر ، وكتب لصديق في البعيد : صديقي المستيقظ في النبض ..

أكتب لك هذه الرسالة ، لأزف إليك فيها وداعة حنَّون اللوز ، وضوء الشمس السخي على طيبة الأرض ، آملاً أن تقرأها وأنت في وضع مناسب . إني أدخَّن بشراهة ، كما قال فيلسوف زماننا (أنا أدخن ، فأنا موجود) بدأت أتعلم كيف أتخاطب مع الناس .

أسأل نفسي .. هل غادر النبلاء من (متردم) أم هل عرفت الدار بعد تهدم ؟

تعب المشي من قدمي ، وتعبت قدمي من الحفا ، وإن لم يأت قلبي إلى الديار ،فإن ديار القلب مورقة بالأنوار ، مبتلة بطلل الوعود .

لا تضحك ..

امتلكتني حالة الشعر ، فنثرت وقفيت وسربلت .. عش رائعاً .. لك حبي وأمل لقائي .

حمدان

طوى الرسالة ، ومرر بلعاب اللسان صمغ الظـــرف ، وســطّر عنوان صديقه ، على عنوان أخيه ، ولم يكـــن يثــق بوجـــوده في المدينـــة عند أخيه ، لكنه قال وهو يهز الظرف بين إصبعـين .. أن أخا صديقي يحبه ، ويحرص على إحاطته بأي طارئ .

ورأى (حمدان) على حين تداع ، أن المحبة القائمة علـــى مجرى الريح الواحدة .. هنا تكمن في رسالة عشق مثـــل هـــذه الرسالة التلغرافية ، ووجد خبايا الضلوع ، أن صديقه ســـيفرح بها ، ولا بدمن الرد .

سمع أباه ، ينادي أمه :

يا مرة ، تعالي

هاه يا مخلوق (بمعنى نعم)

كره (حمدان) لفظ (مرة) ، وقال ، إنها مســـألة عـــابرة لكنها أردأ من رد (مخلوق) الذي جـــاء على هيئة مهذبـــــة، وقام .

كان أبوه يقعد متكئاً على مخدة عريضة في ركـــن الغرفـــة، ويصغي دون فهم إلى المذياع الذي تعرض للفـــح المدفـــأة ذات يـــوم قد ظهر مشوهاً من أحد أركانه ، وكان الوالد يرفعه بخفـة ويحرك الهوائي لتبدو الإذاعة واضحة ، وإذا ذاك كـــان حديـــث المذيع قد انتهى ، وخلا (عبد الحليم) بأحد أغانيـــه القصـــيرة، وحيثما دخل (حمدان) مفاجئاً جلسة أبيه ، قال الآخر :

استرح .. ستشرب الشاي بعد قليل .

أدرك (حمدان) أن النداء السابق لأمه ، كان من أجل طلب ، أقل ما فيه إعداد إبريق بالشاي . تنبَّه (حمدان) إلى أن والده لم يعد بذاك الذي يقدر الآن ، على إخفاء شعر لحيته الأبيض بالصبغ ، فقد احتل البياض أكثر مساحة الشعر ، وبانت الشعيرات المصبوغة (إن تركت قليلاً) باهتة تميل إلى حمرة الحناء، و لم يرد أن يداهمه بقول في هذا الشأن ، ولو من باب الدعابة ، لكنه أدار سؤالاً إلى نفسه :

ـ" كم هو عمري اليوم ؟ "

قال المغنَّى :

لبيتنا موقع يقترب من طريقين تؤديان إلى السوق، الهابطون إليه و الصادرون منه ، لا بد أن يمروا بأحدهما ، كنا نقعد على مرتفع خلف البيت ، نعد العائدين إلى قريتنا والقرى القريبة من السوق وكان السوق يمكث في غير بعد عن قريتنا، وهناك مراكز المحكمة والقاضي ، والشرطة والإمارة . وكان الخميس في عشيته يضم في البيت ضيفاً ، أو ضيفين ، وغالباً ما يكونون من البدو الذين يعرفون جدي ، ولهم معه أحاديث طويلة ، ولهم عليه واجب العشاء والشاي والقهوة ، ثم يبيتون حتى الصباح . إن ما يزعج أهل البيت ليس ضيوف الجد ، بل تلك التي تحتاج إلى مبيت دافئ وعلف إضافي ، وبعض الضيوف

من البدو ، لا يرتحل من قرية إلى أخرى إلا بأكثر من حمارة ، أما إن كانت في تساويقة جمال ، فأمرها يمكن بسهولة شيئاً هيناً ، إذ أنها تسرح في السفوح والوديان القريبة ، التي يلذّ للجمال فيها قصف فروع الطلح بشوكها وخضرها .

كان للجد صاحب بدوي ، يحب الطعام ، ويحب أكثر منه الدخان الأخضر ، يقضي نصف وقته في تجهيز اللفافات وإشعالها ، ففي كل لحظة تنطفئ ، ويشعلها ، وتنطفئ .

كانت له سعلة ممتلئة بالكبر ، والدخان ، والكلام ، وكثير جداً من النحنحة التي لا تشك في أنها ذهبت كنوع من العادة مع طول الزمن . وكان كيس الدخان الأخضر الذي يبدو مضغوطاً ، يهرس ورقاته الصغير ،وله صرة محكمة ، وكان للبدوي حذاقة وعناية دقيقة بالكيس ، يمكنك رصدها وقت الفتح ، أو الإغلاق ، فقد كان يفك الرباط الذي يشبه الحزام الضيق ، وطرفيه مثنيان بالخياطة .. يلفه .. يلفه حول الصرة بإبهام وسبابة يمينه يقبض على عنق الكيس في اليسرى، ويعقدها عقدتين فقط .. فتبدو الصرة المضغوطة ، ويتفتّت بداخلها مع الاستخدام ، عدد من الورق الأخضر الجاف، يكون أسفلها ناعماً في الململمس مسحوقاً مهروساً برائحة قوية وبما أن التدخين في رأيه هو مصيبة ابتلي بها بني آدم في هذا الزمن .. فإنه

لابد من تقبل هذا البلاء ، والامتناع عنه ، يبقى أمر يقف عند حدد العجز والنفس (إكرامها .. هواها) ، وكسر النفس يأتي في أمور ، عن أمور .

وبما أن الدخان ، (يقعد الرأس) ويأخذ معه في النفخ هموم الصدر ، ويحلو وقت السهر وشد الأحاديث .. فإنه لابد من الشاي ، والقهوة .

وكان ولوعاً بشرب الشاي ، وأكثر من ولوعه بشرب القهوة ويرى أنهما يطريان الحلق مع الدخان .

وكثيراً ما كان يضم أصابع يده ، ويؤطر أسطوانيتها بإبهامه ، ثم يقذف بسعلاته تلك ، ويردد مع النحنحة (الله يلعن الدخان ويلعن ساعته) .

فيجاريه مضيفه :

ـ " أي و الله " .

وكان الجد ، قد أشار عليه بترك هذا النوع ، وتبديله بالنوع المعلب الذي يباع في الأسواق ، لكنه قال لم يستطيع فهو يشتري من هذا بالوزن ، ويكفيه في البادية وقتاً طويلاً أما الجديد فهو لا طعم له ويقضي على الريالات كما تقضي النار على الهشيم .

كان يقضي على فنجان الشاي وهو ساخن ، كما لو أنــــه يقبض على رقبة طائر صغير ، ويرشف منـــه رشـفات عاليـة و متواصلة ، إلى أن يأتي عليه ، ويقرع به على الأرض مســـافة يده المحدودة .. يستزيد .

وكان مغرماً بالحديث ولا يحب أن يسمع ، بقدر ما يحـب أن يسمع مجالسه . وبذيل كميّه العريضين حركات دائمة مـــع حركة اليدين وتبدوان كذيل الحمار وقتما يضايقه الذباب .

وكانت هذه الحركات تأتي مصحوبة بـين حـين وحـين بأصوات بين الأصابع ، ومن الفم أحياناً، وكأنها لغـة إشـارية مساعدة ، وحين يدلف في هذا التعبير ، تحوم عينان ســـوداوان صافيتان وحادتان ، ولم يكن كأهل القرية يقبضون على اللحيـة، أو طرف الشارب عند الحديث ، ونحسـب انــه لا يرغـب في إهــدار وقت الحديث بتلمس برواز الوجه .

أما فمه فإنه يشبه ثمرة التين مهروسة وجافة . وزاد في هـــذا خلوه من أسنان أمامية .

* * *

قال المعنّى :

لقد كان هذا البدوي نتئاً بارزاً في أدراج الذاكــرة ، ومــع انــه كان يصطحب بعض أولاده أو عشيرته وقت وفــوده ، إلا أنهم لم يحتلوا مكاناً مثلما احتل هو .

تلك الليلة المضببة بنثار الســـواد في أول المســاء ، كــان البــدوي قد صلى مع الجد ، صلاة المغرب ، وكان الجد هـــو الذي تزعم هذه القيادة الثنائية ، كان البدوي ، آخر الصــلاة .. بعد آخر سجود .. ويحرك بسبابته بالتسبيح ، ولا يفتــأ يحــرك عينيه عن الشمال ، وعن اليمين ، وبعد السلام ، تسيل من بــين شفتيه بعجلة لا تنقطع ، كلمات (لا إله إلا الله ..) ويلفظــها منصوبــة ، ثم يبدأ في مهمة أخرى، وهي الإكثار من إغمــاض عينيه و فتحهما ، وكأنهما يسيران عدد التسابيح والتهاليل تلك .

قعد إلى جانب الجد ، وأسقط عينيه على كيس الدخــان، ثم أهّب أصابعه لتوضيب لفافة بالورق البيض .. قال

ـــ يا أخوي .. كيف حال ظافر ، وعياله ؟

ـــ أحواله زينة .. وولده (حمدان) جاء من السفر .

ـــ لابد .. قبلما أمشي أسلم عليه .

ـــ نسلّم عليه سوا .

دار حديث طويل ، كان البدوي لأول مرة يوسع من عينيــــه، ويجعل من نفسه مستمعاً ، ويكثر من الأسئلة التي لا يجد لها الجـــد إجابات شافية .

قال البدوي ، إنه يلزم (ظافر) بدين قديم في رأســـين مـــن الغنم، لكنه لا يرى الوقت مناسباً للمطالبة ، بل لابد من الســـلام عليه وعلى (حمدان) الذي يعرف طيبته وهدوء جلساته . اكتفـــى البدوي بقول على هيئة دعاء بأن الله مـــع الطيبـــين ، وزاد ، أن الطيبين دائماً ، يلقون ما لا يتوقعون .

وقت إذا صاح البدوي من الساحة الـــتي تحـــوي فتحـــات البيـــت، (يا عرب) .. جاء الرد من الداخل (حياك الله) ، قام (ظـــافر) من جلسته ليقف على فتحة الباب فاستقبل البـــدوي والجد ، وحيث أن البدوي قد انحنى يفك ربطات صندلـــه ، فـــإن الجد مدّ كفه اليمين مصافحاً (ظافر) ، تبادلا الابتسامة و كـــلام السلام المرفق بالعتاب بالغياب عاد ة تتردد عند الســـلام ، وقـــد يكون الغياب غير طويل ، كان (ظافر) يمنح تركيز عينيه للبـــدوي الذي استوى واقفاً على حافة العتبة ، شد من يد صاحب البيـــت وحك برأس أنفه في رأس الأنف الآخر كأنما هي قبل بالأنوف، ثم مد قدمَه ودخل ، وكان لا يزال ينثر عبرات السؤال عـــن الحـــال باختصار ، وقعد في ركن الحجرة متربعاً ، كانت عيناه الســـوداوان

الذكيتان ، تطوفان بمساحة الجدران تخطفان الباب ومربع النافذة المقابلة ، وسأل :

ــ كيف حال حمدان ؟

ــ الحمد لله بخير .

ــ وصاح يا (حمدان)

خرج من الداخل دون إشارة ووقف أمام البدوي منادياً باسمه مرة في التحية ، ومرة بأبي فلان وكان البدوي يسلم عليه بحرارة ويكثر من قبلات الأنف التي جاء أكثر منها تعليق بصره به.

وقال عندما لم يجد إجابة شافية عن سر السفر وطول الغياب .. إنه رجل متعلم ، والمتعلم لا يخاف عليه .. ثم أنه أدرى بأمور حياته .

وكان (حمدان) يردد بصوت منخفض ، يرفع منه عدما يكون الجواب عن الصحة أو ماشابهها ، ويضيف إليها سؤالاً عن أحوال البدوي ، وهكذا .. ثم سكت (حمدان) ، إذا رأى أن هذه المواويل ستطول ، وترك الفراغ لمن سيفتتح موضوعاً لأي حديث .

بدأ للجميع أن التحايا لم يعد لها موقع ملائم بعد أن أطال تبادلها ، غير أن هذا لم يمنع من بعض الـ (حياك الله) و (يا مرحبا) .

غاب (حمدان) وقت توضيب لفافة ، وجاء يحمل دله القهوة ، صبَّ منها في هرم الفناجين المتراكمة وناول بيمينه البدوي فأبى أن يمد يده ، وقال للوالد التقدير ، و لم يكن حمدان يجهل هذه العادة وقتئذ يكون الذي يصب القهوة صغير من أهل البيت، فأول ما يناول كبير البيت ثم الآخرين ، لكنه رأى في مناسبات أن أول ما يتناول الشاي أو القهوة ، هو الضيف ، وظهر (لحمدان) أن البدوي كان يقبض على أمر كهذا بثقة الرافض لتبديله .

ناول والده ، وناول البدوي ، فأبى البدوي تناولها قبل الجد، ابتسم الجد وأخذ الفنجان ، لم يضعه على الأرض، بل أرخى حرف فتحته ورشف منه واحدة ، كان صوت الرشفة أكبر من محتواها وتناول البدوي ، وفعل كالجد ، وناول (حمدان) ليستزيد .

كان أول فاتحة للحديث عن أحوال الديار والمواشي والأمطار ، وقد أخذت سرباً من الكلام الذي تعود الضيوف أن يسوقوه بوزن وتركيز ، وكذلك يكون الرد من المضيف .

(الأعلام واحدة ، والديار واحدة ، من عندنا إلى عندكم، والأمطار كلنا في انتظار رب كريم ، الرعي ، نحمد الله ، والماء

وفير وتلحق بهذه التعابير التي يطول سردها ، بعض التفــاصيل إن احتاج) .

كان (حمدان) ينصت لمثل هذه الخطب التي يعرف تفاصيلــها وأسرارها ، وسرح في تراكيب هذه الأخبار السجعة ثم تنبه ومرافق البدوي ، جارهم إذ انتهى البدوي من افتتاحيته كــان ينظــر في لحظات منفصلة إلى (حمدان) ويسأله عن أحـــواله ، وكــان (حمدان) يجهز الرد ، كما لو أنه قــد أنهــى ســؤاله ، وكثــيراً ما يختصر بــ (بخير ..) ولا يزيد عليها ، ذكر البدوي ، أنه ينتظر اليوم الذي يدخل فيه أولاده المدرسة ، ولشدة تعلقه وربط أمانيــه بالعلم .. كان يعيد كل الأمور إليه ، ويؤكد أن العلم هو أســاس كل شيء ، وأن مخاطر العلم ، ليست بمخاطر .

أما (ظافر) فكان يهيئ لسانه لقــول معــاذير ، ســيفهمها البدوي ويسكت عن مطالبته بالدّين ، وبــالغ كثــيراً في طلــب الشــاي من بعد القهوة ، ثم القهوة مرة أخرى ، وناشد البــدوي في شيء من النصيحة بترك الدخان ، وفرك كفيه مراراً ، واستأذن فخرج ، ثم عاد ، وأهدر طاقة إضافية من الـــترحيب الــتي زال موقعها ، ولم يكن البدوي قد أدار باله عن هم المديــون ، إذ رأى أن الوقت لا يخرج عن مناسبة القول بما في الصدر مــن معرفــة بأحــوال (ظافر) . لكنه خبأها ناوياً السكوت إلى زمن آخــر ، وقال في غير طول كلام :

ــ أنا ، جئت أسلم على (حمدان) .

ــ حياك الله .. البيت بيتك .

ــ ولك عندنا حق قديم .

ــ هذا وقت سلام ، والدّين ملحوق .

تلمس (ظافر) قرارة ضيفه ، وبشر مخلوفه بالاطمئنان، وعدّل عن قعدته ، وعتق كفيه من الفرك .. وردد في الداخل (إنها جاءت منه) ، و لم يكن قد بذل المعاذير .

أما الجد ، فكان يقلّم الكلام ، ويتكلم في إيجاز العارف والمعروف ، وكأنه يمثل البدوي وظافر ، فيوجه قولاً إلى هذا و آخر إلى ذاك ونظرة إلى (حمدان) ، وكان (حمدان) يذكر وقت خروجه ، وليلة الذبيحتين التي جمعت أهل القرية في بيت الأب، لكنه استطرد لحظات اللقاء بالجماعة ، وهيئة الاشتياق التي وزّعها على الجميع لحظتها .

وقال البدوي ، بعد أن استفرغ أقوال الجد القصيرة :

يا جماعة الخير .. عيب هذا الكلام ، الرأسين عزومة حمدان، وعفى الله عما سلف .

كثّر الله خيرك . . ما قصرت .

كان (ظافر) في دراية سابقة ، بأن رأسين لن يخلاًّ بقطيع بدوي ، لكنه يعلم كذلك حرص البدوي على مطالبة واحد من أهل القرى ، وتعللّ بالمثل : (لا تُري البدوي طريق بيتك) .

لكنه اعتبره نوعاً من المزاح القديم بين الناس ، وجاء في نفسه مقدار من الغبطة والإعجاب بكرم البدوي .. فصاح بحمدان الذي كان قد انتقل إلى الداخل ، (الشاي .. يا حمدان) .

وكان البدوي يوضّب لفافة جديدة ، بينما يمد يده إلى فمه ينتزع سعلة تعقبها نحنحة قوية .

* * *

قال المغنّى :

كان الصباح يطل بفرحة تأتي مشعة كالشمس ، وكان الجد قد ألقى بكلمتين محملتين بالعتب ، ومعهما كلام متقطع عن كرهه بالإهمال والكسل ، وكان قد هدأ قليلاً ، ولعبت أصابعه في مفتاح الراديو باحثة عن قرآن ، عبد الباسط يتلوه كل صباح من (إذاعة نداء الإسلام ، من مكة المكرمة) .

ولأن اليوم لا مدرسة فيه .. فقد جاء الاستيقاظ بعد أوانه، وتساهل الجد في الإلحاح على الصلاة معه بعد الوضوء بالماء البارد .

جاء صوت من الساحة ، يدعو الجد أن سيرسل معه وصيـــة أو رسالة لأبي في المدينة .

وقال الجد لحمدان ، كثيراً من الدعـــوات والتمنيـــات لــــه بـــالتوفيق، وأوصاه بوصية لم أفهم منه إلا أنه كـــان يؤكـــد علـــى السلام ينقله للوالد .

أما (حمدان) فكان يبتسم ويهز رأسه ، ويجدّ في شراب القهوة مـــع الجد ، كأنه يتأهب لشيء يخاف أن يفوت ولا يعود .

كانت تلك هي آخر مرة يرى فيها المعـــنى (حمـــدان) ، و لم تكـــن قد نشأت بينهما علاقة لفارق السن.. لكنه كان بهيئة جميلـــة وكِلام موزون ، يطل .. في الذاكرة برغم كل النتـــوءات الملحـــة، بعض سؤاله عن الدراسة ، وعن حب الكتـــب والمجـــلات الملونـــة، وسؤال لم يسأله أحد من قبله :

ـــ ماذا تريد أن تصبح في المستقبل ؟

ـــ مدرس علوم .

ـــ علوم ؟!

ـــ نعم .. علوم .

ملأ عيني بابتسامة تحرسها شعيرات شوارب ســـوداء وخفيفـــة، و لم أره من بعد .

مشــــــــــــهد (٣)

قال المعنَى :

كنا نهرول بفرح ، وكانت فرحتنا التي جاءت في صباح اليـــوم، هي بسبب أمرين كبيرين ، فاليوم أخذنا شهادات النجاح لآخـــــر العام ، واليوم تبدأ فيه عطلة السنة الكبيرة ، المدرسون لـــــن يمـــدوا بالعصا إلينا ، ولن يعاتبونا على اللعب والغياب ، وفراش المدرســـة لا أمر له علينا ، وإن رأيناه في مناسبة ما (وقت العطلة) فسوف نســبغ عليه شتيمتنا ونختفي ، أو نسبه وننكر ، أو نشتمه وهو يسمع ، ولـــو توعد بنا ، فليرينا أنه قادر وشاطر ويلحق أقدامنا التي نعطيها للريح .

عندما دخلت من باب الدار حاملاً شهاداتي الخالية من الدوائـــر الحمراء ، كان الوقت بمقياس الشمس في الضحى، وكـــان الأهـــل (يجمع لّمتهم جدي) ، قد تحلقوا حول صحن كبير ملأت اتســـاعه حبات التين الشوكي المقشر ، تحيط به خبزة مقســـمة علـــى هيئـــة مثلثات دائرية موزعة ، أمي تمسك بيدها دله سوداء من أثر النـــــار، تصب منها في فناجين بيضاء صغيرة ، القهوة المنــــداة بالجـــتربيل، وعندما مرقت قدماً بالشهادة في عيوهم ، قلت (نجحت .. نجحـــت)، وراحت كل حركة للأكل في القاعدين إلى الســـكون، جئـــت إلى جدّي وقبلته وقبلني ، ألفى بابتسامته من قلبه (الله يفتح عليك) .

وقالت أمي : إنك ابن طيب ، وقد فتح الله عليك .

وقالت جدتي : الله يفتح لك بابه .. الله يســـعدك .. الله يثمـــر فيك .

ودعني أخوتي ، وزاد الجميع من دعوقم للمشاركة في أكل فال الضحى ، ولم أكن فرحاً كثيراً بالتين مع الخبز والقهوة ، إذ غلبت فرحة النجاح والعطلة على كل فرحة .

أخذت مكاني بينهم ، ومددت يدي إلى الصحن ، فزلقت مني ثمرة التين المشمشية اللون فلزمتها وقرضت معها خبزة حارة، وكانت الشمس الضحوية التي لا يدرك جمالها إلا الغائب عن المدرسة في عيني ، تندلق من النافذة الشرقية ، وتوزع ابتهاجاً أبيضاً وصافياً .

سألني جدي عن ابن ظافر الذي يدرس مع ابن مطر في الصف الخامس ، فقلت : الهما ينجحان كل سنة بشطارة ، وقد ركضا معي ونحن عائدين من المدرسة .

طلب مني إعداد الورقة البيضاء والقلم ، وقال (أكتب) نظرت إلى لحيته القصيرة البيضاء ، وصعدت إلى مخارج الكلام في الشفتين ، وسألت (ايش أكتب) ؟ قال ، وعيناه تغمضان قليلاً كمن يتوقع معرفة ما يأمر به ، يا ولدي ، الله يهديك .. أكتب كتاباً إلى أبيك في مكة ، قل له إنك نجحت .. إننا بخير .. كل الأمور تسير على خير .

قالت جدتي : أكتب سلامي الكثير .

قال جدي : كتبت ؟

قلت ، كتبت باسم الله .

قال : أكتب .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ورضاه ومرضاته .. إن سألتم عنا فلله الحمد ، لا ينقصنا سوى أنوار وجوهكم الطاهرة .. ربنا يجمعنا بكم عن قريب .

و لم يتوقف .. لكنني أضفت على صيغة نغمته الإملاء ، (إنه سميع مجيب) .

أكملت الرسالة ، وعلمت علم اليقين ، أن الذي سيقرأها لأبي .. لن يتعب في استقراء بعض الغلطات في الإملاء .. طويتها .. قال جدي ، (أقرأ) ، قلت ، (ايش أقرأ) ؟

أغلق العينين قليلاً ، كمن يشكو من مشاكسة !!

قال : اقرأ ما كتبت يا متعلّم .

فقرأت ، ووثبت عن بعض الكلام الذي لا يعني شيئاً ، وقرأت سلام الجدة مرتين .

قال لي جدي : هنا غلطت ، سلام واحد يكفي .

قالت جدتي : يا مخلوق أكثروا السلام في جوابكم ، على ولدي .

قال جدي : سلام واحد وكلمة (كثير) هي السلام الكثير .

طويت الرسالة ، ومررت على طرف اللسان ليونة اللعاب بالغراء الجاف ، وسطّرت العنوان .

وقتما بقي على الشمس ربع يومها وتغيب ، كان جدي يطوي سجادة الصلاة ، ويتمتم بتسبيح كالهمس ، إذ ذاك ، جاء صوت مرتفع ، (بن زايد) جارنا البعيد عن بيتنا ، ونادى باسم جدي بصوت مرتفع ، قطع جدي همهمته تلك ، ورد بفزع ، مرحباً، (ترحيبة خفيفة بالمنادي) .

ووقت إذ كانا يتحدثان في أمور تتناثر موضوعاتها سمعت (بن زايد) يقول :

قطعوها .

قطعوها ؟

لأنهم ، قالوا له منذ أول الأمر ، إن الحالة تتمادى في الشر إذا لم يوافق على قطع القدم ، لكنه رفض حتى سرى البلى إلى الركبة .

عني قطعوها من الركبة ؟

نعم .. التسمم كان بداية الموضوع ، ومطر ، أهمل العلاج .

وضع جدي يده على جبينه ، كعادته وقت حلول المصيبة المفاجئة ، وردد : (لا حول ولا قوة إلا بالله) .

لم يعد للتساؤل موضع في ذهني ، فقد علمت أن عم (مطر) قد أمر الأطباء ببتر ساقه المريضة من الركبة ، وأعرف كم ظل يعاني من ألم ، ومن حسرة ، ومن جلوس طويل في البيت ، بعد إصابة من جرح في قدمه اليمنى (لا أعرف سببه) ، وقد جاء جارنا

(بن زايد) بآخر خبر وصل مع قادم من المدينة ، وهو شاب من قرية تسكن في غير بعيد عنا . لم أكن لأتصور أي إنسان بقدم واحدة . وخلفهما مضى (بن زايد) ، رحت أمطر جدي بأسئلة عن هذا الحدث ، وكان جدي يجيبني جوابين أو ثلاثة مختصرة ومكررة : (ما أدري .. الله أعلم) .

كنت أعلم أنه يعرف أنه كثيراً من التفاصيل التي أجهلها عن خبر مفزع لي كهذا .. لكنه لن يجيبني كما أريد .

كنت أمزق رسمة على ورقة بيضاء بألوان الشمع ، أضمرت رؤيتها لصديقي ابن مطر ، وكرهت جداً مقابلته في اليوم التالي الذي امتلأت ليلته بأحلام مخيفة ، لم أحك لأحد ، إنني بكيت ، وخفت أن يطلّع أي مخلوق على مخاوفي ودموعي التي لن يصفوها إلا بالخوف و اللارجولة .

رأيت أمي في مرات كثيرة ، تروح إلى بيت مطر ، ورأيتها تساعد بنت مطر ، التي كانت تتعدانى في طول القامة بوجهها العريض وخمار رأسها الأسود الذي يختلط لونه بلون الشعر .. كانت تساعدها في أوقات الضحى ، وتجهز معها العجين وإعداد الملابس للغسيل ، وانشغالات أخرى بحاجة البيت .

ابن مطر ، لم أقابله منذ أسبوع ، حتى جاء يوم إلى ساحتنا ونادى باسمي ، فخرجت إليه، وما كنا لنتحدث أبداً في شأن أبيه.. لكننا كنا نمر بصديقنا ابن ظافر ، ونسرح ثلاثتنا إلى الوادي.

وكـــان الوادي يرتع بلون الذرة الأخضر الذي يأتي على رؤوســـه الطير ، فينقره ويأكل حبات الذرة ، فتصبح لنا مراحل مــــن بقايـــا القماش ، ونحذفها ولو من بعيد ، كيلا تأكله ، وكــــانت حمايـــة العصافير الصغيرة ، تأخذ كل ساعات يومنا ، ولا نكـــاد نعـــود إلى دورنا إلا حين تملأ أعيننا انطفاءة الشمس وقت الغروب .

أما وإننا صحبة واحدة في المدرسة ، فكـــذا في العطلـــة ، وفي حمايـــة الطير ، وفي أكل لحوم العصافير عند الصيد .

وقال المعنى :

في طريقك إلى الوادي ، وهو يضطجع بغطـــاء بقعـــة خضـــرة متناثرة متقاربة ، وأنت تخلف البيوت وراء اتجاهك .. هنـــاك ، إذا أخذتك التفاته نحو اليمين ، ستملأ عينيك شواهد القبور المنخفضـــة (حتى تكاد لا تبين للناظر) ، سترى بعضها مـــن حجـــر (المـــرو الأبيض ، وبعضها بلون التراب ، وبعضها بألوان الحجارة الأخـــرى، وبعضها قد اختفت في أحضان نبات العرفج والزقـــوم والســـعور، على بعد ثلاثة قبور من طرف المقبرة ، قبر تهدمت حوله الحجـــارة القصيرة التي تلمم في تماسكها التراب ، وقد تســـاوى بـــالأرض إلا قليـــلا ، يقول لك أهل القرية ممن يعرف المدافن ، أن (حليمـــة) زوجة (مطر) ترقد هنا منذ عشرين سنة .

وها إن ابنتها ، قد مرت من الطريق القريبة ، وفي يدها يد ابنـــها محمد ، وفي اليد الأخرى إلى صدرها ، الطفل الرضيع بغطاء أبيـــض من القطن كالقلنسوة ، يكاد يغمض عينيه الســـــوداوين مـــن رذاذ الشمس .

وإن جاء على بال هذه الماشية في الطريق ، والمشـــغولة بمـــا في يديها إنها تمشي إلى جاني المقبرة، ذكرت الرحمن ، واسترحمت علــى أمها ، والخوف المتوارث من سكنى القبور يكاد يعقد لســانها عــن الحركة، حتى تمضي وتنسى ، وها إنها مرة تترحم عليها من قلــب لا يعرف البغيضة والبغضاء لأحد ، وقتما لفظ الــزوج (يـــا بنــت حليمة) .

لم تكن قد تركت الراقدة في ذاك القبر ، ســوى لحـاف مـــن الصوف صنعته بيديها من صوف الغنم وغزلت ألوانه ، التي غـــدت باهتة ومهترئة ، وبقي من بقاياها مشط من الخشب المتـــين أحمـــر، ذهبت كثير من أسنانه ، أما إن كنت وله على معرفة الأولاد ، فلـــم يعد لذاك البيت الذي كان يحنو بجدرانه المطينة على عكازي مطـــر، إلا ذكرى طفولة مرقت كما تمرق عشية وضحاها ، وبى أمامه بيتـــا واسعا بحمامات يسموها (إفرنجية) ، وغدا لأصـــوات أولاد الأولاد في الدار ضجيجا يكاد يعمر قلب الجو وينسيه عن مـــاضي زوجتـــه وحاضرها رجله المبتورة .

ذهب ابن مطر الكبير إلى ما ذهب إليه غـــيره مـــن التطـــاول والتنافس في المقتنيات الكبيرة ، وطحنت أمور الحياة الجديـــدة كـــل معالم للناس ، ألقى كتبه في خزانة من الخشب المستورد البراق ، وقال عليها العافية، وإذا سألته عن شيء ينظر فيك قليلا ، ويستأذنك ليقوم إلى كتاب ما يجيبك منه وهو يرعى سبابته بين جوج شعر رأســـه، والله المستعان ، فقد أضاعت أمور (هذه الأيام) الجمل والجمال .

افتقد مطر طعم القادم الذي ينادي باسمـــه مـــن الســـاحة قبـــل الدخـــول ، وجاءت مكانها ضاغط للجرس بالكهرباء ، لو حـــك حمار جلده عليه لصاح . وكان الراديو الصغير الـــذي بـــث ســـنينا (صوت الجماهير من بغداد) وإذاعة لندن.. يقبع في كســـاء مـــن الغبار مع مخلفات البيت القديم ، والتي كان مما فيـــها نعـــالا مطـــر القديمان .

و لم يعد للراديو مكان في الجلسة العائلية ، فقد ركلـــه جـــهاز كبـــير بألوان وإضاءات ، إذا أدير إصبع التشغيل فيـــه ، رج كـــل الغرفة بأغاني غربية لا يفهمها مطر (جاء بها ابنه الصغير ، سالم ، من سفرته الدراسية إلى أمريكا) وإذا لقي مطر من هـــــذا الضجيـــج عنـــاءه ، جاهد مع عكازيه حتى يستوي واقفا عليهما ، وقاد نفســـه المترعة بالماضي الجميل إلى خارج الدار ، مسلطا ناظريه نحو الجبـــل الكبير الواقف باتجاه الرياح والشمس والأيام .

وإذا شح نور النهار ، وخبت بنورها الغروبي وهجة الشمس، تحلق الأحفاد ، أو تناثروا قرب صندوق بلاستيكي بواجهة زجاجية تظهر عليها ملونات لأشياء بعضها لها وجوه وليس لها أرجل، وبعضها لها أيد كأيدي الضفادع لا يعرف عنها إلا أنهم يسمونها (كرتون) وإذا ما اشتكى من غرائب لم يعهدها ، قالوا له (هذه موسيقى ..هذا ليس إزعاج) أو (التلفزيون يعلم و لا يخرب) ، و لم يكن يزيده في الغرابة إلا حب آبائهم لتلك الساعات التي يبث فيها القمر الصناعي مباريات الكرة ، ماذا يقول ليقول، وقد كان اللعب في زمانه ، ضربا من العيب لا يليق بالصغار إن اهملوا واجب المساعدة في الزراعة أو غيرها ، وكم كان يتمنى الشاب أن يكون الوقت مديدا ليعمل أكثر ، وحين تباغته غرائب الأشياء يدعي بدعاء حاد على من كان السبب في تدمير الناس وخراب قلوبهم وزيادة لهوهم ، واستهانتهم بجواهر الأمور ، والتي قضت عليها وفرة الأموال وبيع الضمائر .

أما إذا جاء الحدث الجميل وطابت فيه القعدة اللذيذة مع القهوة ، فإن مطر يفتح خندقا في امتداد حفرته تعليقا يخفف بالهزء والتندر عذاب الغرائب ، ويروح مع مجالسه (بن زايد) عرضا وطولا ، فيريان أن (الكورة) سارقة العقول ، و مضحكة على وقت الناس ، وأن (أبو نمل) يقضي عمره في البله ، عندما يجيء برنامجه على واجهة صندوق التلفزيون .

وانك لتجد لكل برنامج في التلفزيون مصطلـــــح ، يضعانــه ، ويضعه كل من في شاكلتهما من أهل القرية ، فندما يرى شـــــخص مهذار .. قيل عنه : هذا محدث التلفزيون (فلان) .

ويرون أن (المراصعة) ويعنون بها المصارعة هـــي نــوع مــن التعذيب والخبال ، وهكذا تمضي حرارة القلب على قـــدر تبريدهـــا بالكلام ، يصادف أن يجيء ضيف من بعيد ، فيــدب نهــر صــاف وسريع في قلب مطر ، ويفتح منافذ غاباته المنطويـــة، عـــائدا بأيـــام رحلت إلى ما كانا يفعلان ، ويفعلان .

و لم يكن لجيل التلفزيون ، مجلسا طيبا معهما ، فيقتصران غرفـــة بلسان واحد .. القصائد المتداولة ، ولشد ما تهيج الحســـرة بقلـــب مطر، فيدعو ضيفه الصديق القديم إلى قصيدة الشاعر (١) :

(يا غبوني على سمعي وشوقي والصبا
كان يطري علي الشوق ، وأنا بظلم الليل ساري
واليوم تمضي بعز الشمس ، والرأس يداوشينا)

---

(١) يذكر الشاعر الشعبي – هنا– تغبنه على قوة شبابه ، وما تفعله في المشيب .

وقال المعنى :

في منحنى لشارع خلفي ، أو قل هو شبه شارع ، تتـــهاوى في طمأنينته أبواق السيارات وضجيج الحركة ، كـــان يجلــس شابان يدخنان ويشربان الشاي ، وكان المار مـــن أمـــام هـــذا المقهى، لا يظنه أبدا استراحة للشاي وفيض الأحاديث . كـــان أحد الشابين بثوب أبيض يغطي بطوله كعب الحـــذاء ، وعلـــى رأسه عمرت عمامة بيضاء ، يلزمها عقال أسود عريض ، يضـــع على عينيه نظارتين خفيفتين لا تكادا تبينان ، لولا إطارهما الذهبي المائل إلى الصفرة وتحت الأنف الطويل ، شـــاربان متراخيـــان، كأنما يشكوان وهنا قديما ، ويمكن للقريب منــــه ، أن يلاحـــظ ببعض وضوح ، غزر الشعر الأبيض على الفودين . كان يضـــع ساقا على ساق ، يهز أحدهما برتابة ، ويسحب أنفاسا عميقـــة وبطيئة من سيجارة بنصف عمر في يده .

يجلس إلى الطاولة الصفيح ، بلونها الأخضر الباهت ، رجل في آخـــر الشباب وهذا النوع من البشر ، لا يمكنك التنبؤ بســـنه ، غـــير أن قسمات الوجه الحليق ، والخالي من الشـــوارب ، تعطيـــك دلالـــة بيقظتـــه وذكائه . ولم يكن قد أتى على كـــل الشـــاي في كوبـــه الزجاجي ، مثلما أتى عليه الآخر ، ولم يكن يدخن كجليســـه ، ولا يهز ساقه ، بل كان يقترب من الطاولة الخضراء ، وقد انحسر عـــن

أسفل ظهره شق بالخناءة قصيرة ، فاتضح حزام البنطلون ، وأسفل القميص ، وإذا تسلفت عيناك ظهره ، ستجد رقبة مرتفعة قليلا لا تتناسب كثيرا مع الرأس الأشعث الكبير الذي يربض بلا عناية عليها.

كان يبدو لمن يراقبهما ، أن هذا الأخير مهذار كثير التهريج، بينما الأول يستمع إليه ، وكأنه سعيد بهذرته .

ويبدو أنه لم يهنأ بما بقي من كوب الشاي ، إذ بدا أن الصحيفة الملفوفة أمامهما ، قد امتصت قدرا منه ، اندلق إثر هزة عنيفة من كف المتحدث ذي الوجه الحليق .

كان المقهى بالرغم من ضجيج الشارع العام ، ومن كثرة الرواد يحظى بقدر طيب من السكينة ، تقطعها تلبيات العامل الهندي الذي يقدم الطلبات .

كان يدور بين الشابين ، هذا الحديث :

يا صديقي .. هذه مثل سياسة الجزرة .. أسمعت عنها ؟

و ما سياسة الجزرة ؟

إذا تمرد الحصان ، جاء صاحبه بجزرة في يسراه ، وجاء في اليمنى بعصا .. فإذا أطاعه وإلا ..

فهمتك .. فهمتك .

قال المعنى :

رمت الشمس بوهج صيفي ، على ملابس نشرت للتو بنقـــاط، فوق امتداد حبل مشدود ، بين لوزتين خضراوين ، جاءت قطـــرات الماء من أسافل الملابس ، فأحدثت بقطراتها على الأرض ، أخـــاديد صغيرة ، لا تلبث أن تجف تحت الحرارة .

أمام الحبل المثقل ، كانت تطل فتحة باب خشبي على مصراعيـه وفي الداخل ، هدوء يسمع فيه طنين الذباب ، يطـــل منـــه شـــباك بعواميد رأسية من الحديـــد ، ويقـــذف بتجويفـــه نحـــو الظـــهيرة الراكـــدة، وكانت امرأة عجوز خلف الشباك على وجهها بعـــض جمال ، تلاعب طفلا جميلا مبتسما ، تمـــد نحـــو ســـرته أصابعـــها المتحركة، فيضحك ويهدأ ، ويضحك .

كانت تداعبه ، وداخلها يكتتز بالمسرة والهناء ، فقـــد خلفـــت أمـــه بعد سنين طويلة من العقم ، وبعد زوجين ، أحدهما طلقـــها، ويقعد في بيت كبير بساق واحدة ، كانت (فضة) .

تلاطف بحب حفيدها الوحيد لابنتها الوحيدة التي مات أبوهـــا العجوز ، فزوجتها أمها ، وأنجبت (بدرا) ينثر أملا وحبـــورا مـــلأ الدار، وقد استيقنت جدته ، بأنها لن تمت ، فها هي ترى حفيدا مـــن ابنة طال انتظارها ، بعد السنين والحساب .

كانت أمه تدخل لتحمل بقية الملابس وتنشرهـــا علـــى الحبـــل في الساحـــة . تبتسم له ولأمها التي تضحك له وتردد:" بكره تكـــبر،

تكبر يا مالي ، مثل الرجال ، بكره يصير خيرك على أمك ، وعلى كل أهل القرية، على كل الناس " .

إذ ذاك ، سمع صياح الدجاج الذي يعني الفزع . هجمت كلاب سلوقية ، (لا مأوى لها عند أهل القرية) على الفراريج ، فخرجت أم الطفل وخرجت بعصاها الطويلة فضة العجوز وهي تضرب بها وجه الأرض مهددة ، "دجاجي .. دجاجي . ساحتنا فيها كلاب".

في منخفض الوادي الأخضر ، كان رجل عجوز يضع على رأسه عمامة بيضاء ، وعقالا أسود، تدلت في ذؤابته مفاتيح صدئة ، يقعي على قدميه ، وينقي أرضه المزروعة من نبات طفيلي ، يوجه عينيه نحو دار فضة ، ويفتح فمه قليلا ليستيقن مما سمع ، ويرسل صوته المنشحب ، إن كانت تحتاج لمساعدة في طرد الكلاب التي تهاجم الدجاج ودجائن الغنم ، وكان أبو حمدان يقف ويرسل عينين بعيدتين .

* * *

وقال : كانت القرية القديمة على سفح الجبل ، تتكئ شبه خالية من الساكنين ، بينما تناثرت بيوت حديثة استبدل بناؤها بالأسمنت، ووقفت إلى جانبها ، سيارات ملونة . وكان بداخل هذه البيوت ، أناس أحبوا أنفسهم كثيرا فانعزلوا وتركوا البقية ، وتركوا

أراضيهم خاوية الزرع ، وقد تهدمت جوانبها النضرة وغزتها النباتـات الغريبـــة ، فتراها إلى جانب الأخريات النضرة ، يابسة كجو اعـــد الخراف البيضاء .

الدمام

من ديسمبر ١٩٨٥ إلى ديسمبر ١٩٦٨م.

" يعتبر عبدالعزيز مشري من المبدعين الروائيين البارزين في السعودية وفي الوطن العربي، حيث تتميز كتاباته بدرجة عالية من الصدق الفني، الذي استطاع من خلاله تقديم وجدان الإنسان السعودي الضارب بجذوره في أعماق التاريخ وتراث الحياة القديمة، ولذلك تنبعث من ثنايا سرده الروائي والقصصي، الذكريات والحكايا المفعمة بالشجن والتشبث بالجذور"

الروائي "صنع الله إبراهيم"

" حبست نفسي في غرفتي يوماً كاملاً بنهاره وليله لقراءة المشري وإعادة قراءته، وكما قلت (من قبل)، لم يشد انتباهي في الأعوام الأخيرة أي عمل محلي أو عربي سوى "الطوق والأسورة"، وسوى "الوسمية"، وقد أحسست أنه عمل أدبي لا يرقى إلى مستوى "الطوق والأسورة" فحسب، بل يكاد يرقى إلى مستوى أي عمل أدبي عالمي كرواية "مائة عام من العزلة" لماركيز.

(جريدة الرياض - ملحق ثقافة اليوم ١٤ ابريل ١٩٨٨م) .

الناقد : عابد خزندار

" ومنذ أن عرفت "المشري" وأنا أتشبث بأجمل وأعظم ما فيه، وما في كتابته، وهو هذه القدرة الغريبة العجيبة على التعالي فوق كل ألم والتسامي بكل معاناة، إلى مرتبة المعاناة الإبداعية المنتجة لهذا النص الإبداعي الجميل المتصل أبداً "

الناقد : د. معجب الزهراني

" وحين تقرأ للمشري، فأنت أمام إشراقات إبداعية منهمرة من ثقوب التجربة في احتكاكها بلحم الواقع في شراسته وخشونته وتوليفته العجيبة، أنت أمام عمل يتمرد على مواضعات الهيكلة والقولبة والتقنين والتنظير، فهو يقيم هندسته الخاصة من شظايا الشروخ التي عصفت بكيانه الإنساني على المستوى الذاتي والعام معاً .

الناقد د. محمد الشنطي

أصدقاء الإبداع

أصدقاء عبد العزيز مشري

الدمام - مطابع الايمان تلفون: ٨٤٧٢١٤١ - فاكس: ٨٤٧٢١٤٥